
6 me Année, No . 237

Lundi - 17 - 1 - 1938

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

بدل الاشتراك عن سنة
مص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

العــــدد ٢٣٧ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٥ ذى القعدة سنة ١٣٥٦ — ١٧ يناير سنة ١٩٣٨ » السنة السادسة

الفهــــرس

النشر فى مصر

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

———※———

قرأت ما كتبه الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام عن « التأليف والنشر فى مصر » . وقد روى فيه أن أحد أصحاب المعالى وزراء الدولة فى الحكومة القائمة دعا إليه جماعة من الكتاب وحدثهم فى تنشيط التأليف فى مصر ومكافأة المؤلفين ووعد فى هذا وعوداً حسنة

وهذا صحيح ، فقد روى لى مثله صديق من الكتاب ، ولا علم لى بما ينوى وزير الدولة أن يصنع ، وأحسبه لا يزال يستطلع الآراء ويستشير أهل الذكر فى هذا ، فلندع له بالتوفيق ، ولنسأله تعالى ألا يشغله بما هو أهم وأولى بعناية وزراء الدولة ، من شئون الدولة ؛ ولو كنت مكانه لكان حسبي أن أستطيع تنظيم أمور النشر على وجه صالح ونحو عادل ، ولتركت غيرى من الوزراء يحملون الأعباء الأخر

وخلاصة التجارب فى هذا الباب أن الأدب فى مصر لا يُعوّل عليه فى أمور المعاش ، وأن الأديب الذى ليست له صناعة أخرى يرتزق منها ويحيا بها خليق أن يموت جوعا . وقد كان المرحوم السباعى يقول على سبيل المزاح : إن الأديب ينبغى أن

يكون أديباً وشيئاً آخر ... طبالاً ، أو زماراً ، أو عواداً ، أو غير ذلك مما يجرى مجراه . والذى كان يقوله هازلاً . هو الجد الصميم . ودع الطبل والزمر وما إلى هذا فما كان يريد إلا السخرية والنكتة ، وكانت المرارة التى يحسها فى نفسه تفيض على لسانه على هذا النحو . على أن الواقع مع ذلك أنه لا غنى للأديب فى مصر عن مرتزق غير الأدب ، يجعل معتمده بعد الله عليه . وما أعرف فى هذا البلد أديباً وسعه أن يجتزئ بالأدب ؛ ولو كان هذا مما يدخل فى الطاقة عندنا لكنت من أحق الناس بالقدرة عليه

وكلام فارغ كل ما يقال عن الحرفة وإدراكها للأديب ، فما تفعل ذلك إلا فى مثل بلادنا ، وحتى أدباء العرب وشعراؤهم لم يدركهم شئ من الحرفة ، وإنما كانوا هم المجانين ، إلا إذا كان المقصود أن بلاء الحرفة من النفس ؛ على أن هذا مبحث آخر قد نعود إليه فى فصل آخر

وقد جربت كل وسائل النشر فى مصر ، وانتهيت إلى أن الأمر لا ينقصه سوى التنظيم . فى مصر والبلاد العربية الأخرى عدد كاف من القراء يستطيع الكاتب أو الشاعر أن يعول عليه وهو مطمئن إليه ، ولكن من العبث وامتنت أيضاً أن تجشم الأديب فوق عمله أن يقوم بأعباء الطبع والنشر ، وأن تتوقع أن يجنى من كل هذا العناء ربحاً عادلاً . وليس لهذا الخلط من نتيجة سوى الاضطراب وفقدان الحقوق . وقد جرب كل أديب فى مصر أن يتولى هو هذه الأعباء جميعاً وأن ينهض وحده بها جملة ، فأخفق . وليس الإخفاق ألا تجنى شيئاً ، بل أن تجنى كل شئ ولا تشعر أنك جنيت شيئاً . ولا أذكر هنا ما جرب غيرى ، فحسبى ما جربت ، وقد نشرت كتباً توليت أنا أمر طبعها ونشرها ، ونفدت فى زمن معقول ، ولكن أصحاب المكاتب يختلفون ، ولا سبيل إلى الاستغناء عنهم ، وفيهم الأمين ذو الذمة ، وفيهم الطامع المنهوم الذى لا يشبع ولا يرضيه إلا أن يخطف كتبك بغير ثمن . ومع ذلك لا يسعنى إلا أن أعترف بأنى ربحت ، وإن كنت لم أشعر بذلك ولم أر له أدنى أثر فى حياتى . وإذا حسبت الحساب على الورق وأحصيت ما أنفقت وما حصلت كانت النتيجة أنى جمعت مبلغاً من المال لا يستهان به ، ولكنه مال على الورق ، لأنى أنفقت جنيهات رجعت إلىّ قروشاً مبعثرة ذهبت إلى الشيطان

وجربت أن ينفق غيرى على طبع كتبى ويتولى عنى نشرها ثم نتحاسب ، فوقع لى ما يضحك وما يبكى . وأحب أن أستثنى طائفة من الجادين المخلصين ، وأقول بعد ذلك إن بعضهم نشر لى كتاباً طبع منه أربعة آلاف نسخة نفدت كلها فى عام ، وشرع يطبع لى كتاباً ثانياً ، فقلت أحاسبه ، وطلبت منه نصيبى ، فكان جوابه الظريف أن دع الكتاب الأول فما أعرف أين ذهب ، ولعله سُرق أو حرق ، ولنقصر الحساب — فى أوانه — على الكتاب الثانى إن شاء الله !

فقلت له : يا أخى غفر الله لك ! هل حسبتنى هاوياً ؟ أم ظننت أنى بائع كوارع ؟ إن هذه صناعتى وهى مرتزقى ، فاذا لم آخذ حقى فكيف بالله أعيش ؟

فابتسم وربت لى على كتفى ملاطفاً ، وقال : « العفو ! العفو يا أستاذ ، لا تقل هذا الكلام ! سبحان الله العظيم ! »

يعنى أنه لا ينبغى لى أن أقول إن هذه صناعتى ومرتزقى ! ويظهر أنه كان صادقاً وكنت أنا المخدوع ، فقد عشت من غير أن آخذ منه حقى — ولا نصف مليم واحد منه !

وينفد الكتاب — عدة آلاف من نسخه — ثم يتبين لك أن الاسكندرية أو طنطا أو المنيا تسمع به وأن ما بيع بيع معظمه فى مدينة واحدة هى العاصمة ، والباقى رص فى الصناديق وشحن على البواخر إلى الهند والعراق ومدغشقر الخ وتجيئك الكتب تترى بذلك ، فتعلم أن النشر غير منظم ، وأنه كان فى وسعك أن تخرج للناس من كتابك أضعاف ما أخرجت لو أن هناك نظاماً

والعلاج عندى ليس أن تعين الحكومة الأدباء ، فإن هذا يفضى إلى الظلم والغبن ، ولكل حكومة من تؤثرهم بعطفها وبرها ؛ والأديب ينبغى أن يبقى حراً ، وإلا فسد ، وتعفن . ولو أن الحكومة أرادت الإنصاف وصدقت نيتها فيه ، لوجدت أن الأمر يوشك أن يفشو عليها ، والنتيجة المحققة على كل حال هى التمييز والغمط

إنما العلاج الصحيح العملى أن تقوم شركة ذات رأس مال كاف تتولى النشر ، وتنظم أسواقه فى البلدان العربية كلها ، وترتب الأمر فيما بينها وبين الصحافة على نحو يكفل التنويه الوافى

في أوانه ، وقد استطاعت دور السينما أن تنظم علاقتها بالصحافة على وجه مرضي ، فلن تعجز عنه دار للنشر . وبذلك يستريح الكتاب ويطمئنون على حقوقهم ، ويثقون بسعة النشر ويوقنون من إمكان التعديل على ما يخرجون كما يفعل زملاؤهم في الغرب

وفي هذه الحالة يتسنى ما لا يتسنى الآن : الطبع الجيد ، والحجم الموافق ، والربح المضمون ، ومع ذلك انتظام عمل الأديب وإتاحة الفسحة الكافية من الوقت للتفكير والكتابة والإتقان

هذه — فيما أعتقد — هي الوسيلة العملية ؛ فإن الأسواق موجودة ، والقراء يعدون بالآلاف في كل قطر ، والصحافة أداة وافية : فالأمر لا ينقصه إلا التنظيم ؛ وهذا لا يكون إلا بالمال الكافي ، فهاتوا لي المال ، ثم انظروا ماذا أصنع لكم يا إخوان ! ولا تخافوا أن أبدده . نعم . ستحدثني نفسي بذلك وتحاول أن تحملني عليه ، ولكني سأقاومها ، وسأروض نفسي على هذه المقاومة من اليوم ، فلا تخشوا شيئاً ، ولا تقلقوا على مالكم ، ومع ذلك فلأن أبدده أنا خير من أن تضيعوه أنتم . ومتى كنتم تحسنون الإنفاق ؟

إبراهيم عبد القادر المازني

ليلى المريضة في العراق

للدكتور زكي مبارك

— ٦ —

وما كادت ظمياء تفوه بالعبارة الأخيرة حتى ابتدأت أوقن بأني سأهتدي إلى سرّ ليلى . وقد عرفت أيضاً أنه لابدّ لي من التجمل والتوقر حتى يصل الحديث إلى مداه ، فقد قضيت دهري وأنا أرعن أهوج لا أكاد أسمع الحديث عن الحب حتى يفتضح وقاري أشنع افتضاح . ولن أنسى ما حييت تلك الخسارة الفادحة التي قضت بأن يطوى عني إلى الأبد سر السيدة (ن) فقد كانت عرفت من صواحبها أن شفاءها عندي ، وجاءت الشقية إلى عيادتي بشارع الدابغ ، فلما فحصتها تبين أن العلة لها سبب مدفون ، وكنت بحمد الله ولا أزال من أقدر الأطباء على تفرس الحجب من سرائر النفوس ... اهدأتْ تلك السيدة على المقعد ، وبدأت أحاورها في ماضيها لأعرف سرّ العلة ، فما كادت تقرأ السطر الأول من صحيفة ذلك الماضي حتى طارَ صوابي ، فوضعت يمناها على صدري ، ولكن الشقية لم تمهلني وأفلتت كالظبي المذعور . وبذلك طُوِي عني سرها إلى الأبد . وكانت تلك الحادثة سبباً في انتقالي من شارع الدابغ إلى شارع فؤاد

وما أحسب ظمياء إلا صورة من السيدة (ن) وربما كانت أفظع وأعنف فهي عراقية ، والعراقيون تغلب عليهم سرعة الانفعال ؛ والمرأة العراقية فيما سمعت ورأيت لا تسكن إليك إلا إن ضمنت حسن الأدب وكرم العفاف ، وهي عندئذ لا تحتاج إلى من يستدرجها لمسول الأحاديث ، وإنما تنطلق كالبحر الثجاج ؛ فإذا ارتابت في أدبك ... لا أدري ما تصنع فإن الله رحمني من أمثال هذه المواقف منذ قدمت العراق ، وهو عز شأنه قادر على أن يردّني إلى وطني مُشرق الجبين

وجملة القول أني تجلدت وتماسكت ، فمضت ظمياء تتحدث ، ومضى المطر يقرع النوافذ كأنه عذول ، وبين القلب الخافق والسحاب الدافق صلات يعرفها من يؤمنون بوحدة الوجود

— ثم ماذا يا ظمياء ؟

— ثم وقف قطار المعرض ، فلم تنزل ليلى ولم ينزل الفتى ذو العينين الخضراوين . ودار القطار دورة ثانية قطعتها في ذهول

— وأنت أيضاً تحبين يا ظمياء ؟

— ألست إنسانة ، يا سيدي الطبيب ؟

(وهنا رأيت من الحزم أن أعلن نزاهتي ، فأفهمتها أني أنكر عليها هذه البدوات ، لأن الذي يهمني هو الوقوف على سر ليلى ؛ وأشهد أني لم أجد صعوبة في اصطناع هذا النفاق ، فقد مرنت عليه بفضل ما ابتليت بالمنافقين الذين تقدموا وتأخرت . ويكفي ما مر بي من التجارب ، وأخشى أن تقنعني الأيام بأن النفاق سيد الأخلاق)

— أنت يا مولاي طلبت أن أقص الحديث كما وقع

— كما وقع لليلى ، لا كما وقع لك يا ظمياء ، فأنت في عافية وليلى هي المريضة ، والحكومة المصرية لم تكلفني استقصاء أخبار المتيمين في العراق ، وإنما كلفتني مداواة ليلى المريضة في العراق

— فهمت يا سيدى فهمت

— زين ، زين ، ثم ما ذا ؟

— ثم وقف القطار فتلاحظ العاشقان

— عاشقان؟ وهل يتم العشق فى لحظة ؟ هل نحن فى السينما يا ظمياء ؟

— وقع التلاحظ بين ليلى وبين ذلك الفتى ، والتعبير بالعشق من عندى

— شيء جميل ! فى أية مدرسة تعلمت يا ظمياء ؟

— فى المدرسة التى تعلمت فيها ليلى ، وهى المدرسة التى أنشأها حكمت سليمان فى سنة ١٩١١ بعد إعلان الدستور العثمانى ؛ وكان حكمت سليمان مدير المعارف فى بغداد ، وكان تعليم الفتاة فى تلك الأيام من المسائل التى يختلف حولها الساهون ، فكانت ليلى أولى فتاة قُيِّد اسمها فى تلك المدرسة

(وهنا دونت فى مذكرتى أن ليلى قديمة العهد بالثورة على مأثور التقاليد ، وهذه نقطة مهمة سأعرضها على المؤتمر الطبى ، ولعلها تكون السبب فى كشف كثير من الأسرار ، فالثورة على التقاليد تحدث رجّة فى المخ والأعصاب ، كما حدثنا المسيو ديبويه وهو يحاضرنا بكلية الطب فى باريس ، وهو أستاذ فاضل كنت السبب فيما وقع بينه وبين زوجته من شقاق)

— وهل درتم بالقطار دورة ثالثة ؟

— لا ، يا سيدى ، فقد خشيت ليلى أن تفطن إليها العيون فنزلت ونزل الفتى ، ولكنه أقبل عليها يقول : هل أستطيع أن أرشد السيدة إلى محتويات المعرض ؛ فانى أراها غريبة بهذه البلاد؟ ولكن ليلى لم تلتفت إليه ، وانصرفنا ساكتين . وعرف الفتى أن سهمه أخطأ فمضى كاسف البال

— وبعد ذلك ؟

— مضينا بعد ذلك إلى البيت الذى نزلنا فيه بشارع قصر النيل ، وكان الحديث على المائدة من أشهى ما يكون ، فقد كانت الجرائد نشرت حديثاً لرجل مشهور اسمه سعد زغلول ، وكانت ربة البيت تحبّ إمتاعنا بصور الجدل السياسى فى مصر ، فأحضرت نحو عشرين جريدة فيها الرفض والقبول لذلك الحديث ، ثم أحضرت صورة كاريكاتورية نشرت فى الكشكول لكاتب معمم اسمه عبد العزيز البشرى فيما أتذكر ، وصورة أخرى للشيخ بخيت وهو يعترض على دخول السيدات أروقة البرلمان ، كان الجو كله جو ضحك ، ولكن ليلى لم تبتسم . ولعلها لم تعرف كيف كان الطعام فى ذلك اليوم

— مسكينة ليلى !

— نعم ، ياسيدى ، مسكينة ، فقد قضت ليلة مؤرّقة ، ثم أزعجنى من نومى قُبيل الفجر لأستعد للعودة إلى المعرض

— ورجعتما إلى المعرض ؟

— رجعنا ، رجعنا ، وركبنا القطار عشرين مرة

— عشرين مرة ؟ ولماذا ياحمقاء ؟

— لنرى الفتى ذا العينين الخضراوين !

— ورأيتماه ؟

— ما رأيناه ، وإنما رأينا أنضر منه وأصبح ، رأينا فتياناً كاللؤلؤ المنثور هم الشاهد على أن مصر من الحقول التى تُنبت الجمال . وقد أمتعت عينى بمن رأيت ، ولكن ليلى ظلت صريعة الهم والبلبال

— مسكينة ليلى !

— هل تسمح لى أن ألطم ياسيدى ؟

— تلطمين ؟ إنك لبغدادية ظريفة ياظمياء . ما يهمنى أن تلطمى ، وإنما يهمنى أن أسمع بقية الحديث

— لم تكن ليلى تقول إنها ترجع إلى المعرض لتبحث عن ذلك الفتى ، وإنما كانت تدّعى أنها تحب الوقوف على سرّ تقدم الزراعة والصناعة فى الديار المصرية . وحملها هذه الدعوى المزيفة على شراء عدة نماذج مما أنتجته حقول سملاى ، وهى النماذج التى عرضها السيد محمد محمود

— سمعت بمعروضات هذا السيد ياظمياء

— وكتبت ليلى مقالة فى وصف المعرض نشرتها فى جريدة « البلاغ »

— سبحان الله ! لقد قرأت تلك المقالة فى ذلك الحين وكنت أحسبها من إنشاء ليلى الصحيحة فى حلوان

— لا ، ياسيدى ، هى من إنشاء مولاتى ، شفاها الله !

— آمين ، ثم ماذا يا بلهاء ؟

— قلت إن ليلى كانت تتردد على المعرض بدعوى الاطلاع على أسباب تقدم مصر فى الزراعة والصناعة ، أما أنا فكنت أعرف ماذا تريد ، وقد استمرت هذه الدعوى أسبوعين ، ثم يئست ليلى مما تريد ، فلم تذهب إلى المعرض بعد ذلك

— وبهذا انتهت القصة ؟

— لا ياسيدى ، فقد زعمت ليلى أنها شبعت من المعرض ، وشبعت من الأخبار الحديثة فى القاهرة ، وصرحت بأنها تحب أن ترى القاهرة المعزّية ، علها ترى ما يذكرها بأحياء بغداد ؛ فصحبتنا ربة البيت إلى حى يسمى الغورية ، فدخلنا الحمزاوى والفحامين ، وشهدنا حارة اسمها وكالة (أبو زيد) وفيها تجارة السيد (... ...) الذي يبيع أدوات السمنة للسيدات ، فوقفت ليلى عنده لحظة ، ثم انصرفت . وفى خان الخليلى رأينا سيدة ملفوفة كأنها من عقائل بغداد ، فحيتنا على غير معرفة ، فردّت ليلى التحية بلهفة واشتياق . وأحببت أن أعرف سر هذه الحماسة من ليلى ، فنظرت إلى تلك السيدة فرأيت عينيها خضراوين !

— أعوذ بالله !

— تستعيذ بالله ياسيدى من ذلك ؟

— نعم ، أستعيذ بالله من شر العيون الخضر ، فهى سبب بلائى فى هذا الوجود . ثم ماذا يا ظمياء ؟

— ثم عرضت تلك السيدة أن تصحبنا لزيارة معالم القاهرة وقالت إن زوجها أستاذ فى الأزهر وأنه ينتظرها عند المعلم حسين الجريسى . ونظرت فرأيت ليلى تمشى وهى تنشوى من الانشراح كأنها تلمح من وراء الغيب أعلام الأمل المرموق

وما هى إلا لحظات حتى كنا فى حضرة شيخ جليل اسمه الشيخ دعّاس

— الشيخ دعّاس ؟

— نعم ياسيدى ، الشيخ دعاس ، وهو الذى أنجب أحمد وابراهيم وحلمى وسيد ومحمود ، وهم زينة الرجال فى بلاد النيل

— رضى الله عنهم أجمعين ، ثم ماذا ؟

— ثم تعلل ذلك الشيخ بضيق الوقت ، ودعانا إلى تناول القهوة فى منزله ، فركبنا سيارته ومضينا إلى داره فى حىّ الزمالك . ولما دخلنا أبصرنا فتاة هى قيد العيون ، بل قيد القلوب ، اسمها درية ، فسألنا عنها فعرفنا أنها ابنة الشيخ دعاس ، وابنة السيدة نجلاء ، ونظرت ليلى إلى تلك الفتاة فلم تر عينيها خضراوين ، وإنما رأت عيونها عسلية ، وهو اللون الغالب على عيون المصريات ، وهو لون ينطق عن السحر الحرام والحلال .

— اتق الأدب ياظمياء ، فأنت فى حضرة طبيب !

— الطبيب يسمع كل شىء !

— أمنت وصدقت !

— ومضت درية تناغم أمها باللغة الفرنسية . فسألت عنها فقيل إنها تلميذة بمعهد الليسيه

(وهنا أجهدت ذاكرتى لأعرف من هى تلك التلميذة ، ثم تذكرت أننى لم أتصل بمعهد الليسيه إلا فى سنة ١٩٢٨ والحمد لله على ذلك ، فما يسرنى أن تكون تلميذاتى محوراً لأمثال هذه الأحاديث)

— نعم ياظمياء

— وبدا لليلى أن تسأل عن السر فى اختلاف ألوان العيون ، فأجابت السيدة نجلاء بأن درية صورة لأبيها الشيخ دعاس ؛ أما ابنها فهو صورة أمه اللبنانية . فقالت ليلى : وهل اللبنانيون خضر العيون ؟ فأجابت السيدة : أنا لبنانية الوطن ، تركية الأصل . فقالت ليلى : ومعنى هذا أن لك ابناً أخضر العينين ؟ فقالت السيدة : نعم ، وهو المحروس عبد الحسيب ، وهو طالب بمدرسة البوليس ، وسيحضر بعد قليل

« للحديث بقايا » زكى مبارك

سفارة ألمانيـــة إلى بلاط قرطبة

فى عهد عبد الرحمن الناصر

للأستاذ محمد عبد الله عنان

فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) كانت أسبانيا المسلمة (الأندلس) قد بلغت ذروة قوتها ؛ وكانت إلى جانب الدول النصرانية الثلاث : الدولة البيزنطيــة ، ومملكة الفرنج ، والامبراطورية الألمانية ، رابعة الدول الأوربية العظمى ؛ بل ربما كانت يومئذ أعظم الدول بما اجتمع لها من عناصر الفتوة ، ومنعة الجانب ، وروعة الملك ، ورفيع الحضارة . كانت حقبة زاهرة ، تعاقب فيها فى قيادة الغرب الإسلامى ثلاثة من أعظم قادة الإسلام وساسته ، هم عبد الرحمن الناصر ، فولده الحكم المستنصر ، ثم الحاجب المنصور . وكان عهد الناصر بلا ريب أسطع هذه العهود وأعظمها ، وفيه بلغت الأندلس ذروة القوة والازدهار ، وفيه قامت الخلافة الأموية فى الغرب قوية موطدة ، بعد أن اختفت من الشرق قبل ذلك بمائة وثمانين عاماً . وكانت قرطبة فى عهد الخلافة الأموية عاصمة الغرب الفكرية والاجتماعية ؛ وكانت فى الطرف الآخر من أوربا تبث أضواء حضارة جديدة لم تلبث أن لعبت دورها العظيم فى تكوين الحضارة الأوربية

وقد تبوأت أسبانيا المسلمة مركزها الدولى فى الغرب . كان بلاط قرطبة يرتبط مع معظم الدول الأوربية بعلائق دبلوماسية منظمة ؛ وكان أخص هذه العلائق مع الدولة البيزنطية فى الشرق ، ومملكة الفرنج فى الغرب . ومنــذ عهد عبد الرحمن بن الحكم (عبد الرحمن الثانى أو الأوسط) نرى سفارات الدول النصرانية تتوالى على بلاط قرطبة ؛ وكان أهم هذه السفارات يومئذ سفارة تيوفيلوس امبراطور قسطنطينية فى ســنة ٢٢٥ هـ (٨٣٦ م) ومقصدها أن تعقد الدولة البيزنطية مع الدولة الأموية تحالفاً على الدولة العباسية ؛ ورد عبد الرحمن على هذه السفارة بأن أرسل وزيره يحيى الغزال سفيراً إلى الامبراطور لينظم بينهما علائق الصداقة والتحالف . وتبادل عبد الرحمن بن الحكم أيضاً السفارة مع ملك النورمانيين عقب الغزوات التى قام بها النورمانيون فى الأندلس ، وانتهت بردهم وهزيمتهم

وفى عهد عبد الرحمن الناصر توالت سفارات الدول النصرانية على بلاط قرطبة ، وكان أشهرها وأهمها سفارة قسطنطين السابع امبراطور قسطنطينية فى شهر صفر ســنة ٣٣٨ هـ (٩٥٠ م) . وتقدم إلينا الرواية الإسلامية وصفاً شائقاً لتلك السفارة الشهيرة ، وتصف لنا احتفال الناصر باستقبالهم فى أروع المظاهر والرسوم ، وتنقل إلينا أقوال الخطباء المسلمين فى ذلك الحفل الباهر

* * *

وفى سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٦ م) وفدت على الناصر سفارة من أوتو الكبير امبراطور ألمانيا ؛ وكان يومئذ أعظم أمراء النصرانية كما كان الناصر أعظم أمراء الإسلام . وكان بين الملكين العظيمين علائق ومراسلات منتظمة ، بيد أنها لم تكن ودية دائماً . ولا تحدثنا الرواية الإسلامية عن سفارة أوتو (أو أوتون) إلى الناصر بأكثر من الإشارة إليها ؛ بيد أنها كانت سفارة هامة ، وكانت ذات غاية خاصــة وذات مغزى خاص . وكانـــ سفير الامبراطور إلى الخليفة حبرا من أكابر الأحبار هو يوحنا أسقف جورتسى . وترك لنا يوحنا تفاصيل سفارته فى ترجمة حياته (Vita) وخلاصتها أنه سار إلى قرطبة ليسعى لدى الناصر فى أمر المستعمرات والعصابات المسلمة التى انتشرت فى أنحاء سافوا ، وفى كثير من آكام الألب . وكانت غزواتها الناهبة تمتد حتى شمال سويسرة ، وكان أمراء النصرانية التى تهدد هــذه المستعمرات أملاكهم ورعاياهم قد فزعوا إلى الامبراطور أوتو باعتباره زعيم النصرانية وأقوى أمرائها ، وطلبوا منــه أن يتوسط لدى خليفة المسلمين عبد الرحمن الناصر فيستعمل نفوذه السياسى والروحى لإجلاء هذه المستعمرات عن معاقلها أو على الأقل لوقف اعتدائها وعبثها . فنزل الإمبراطور عند تضرعهم وبعث سفيره إلى الناصر ، فقصد يوحنا إلى قرطبة عن طريق فرنسا ، ومعه طائفة من التحف والهدايا طبقاً لرسوم العصر . ولما وصل إلى دار الخلافة استقبل بحفاوة كبيرة ، وأنزل فى منزل خاص ؛ ولكنه لم يقدم إلى الناصر فى الحال ، بل استبقى مدى حين فى شبه اعتقال محوطا بالإكرام والرعاية ؛

ويوضح لنا يوحنا بواعث هـذا الاعتقال فيقول لنا : ان الخليفة كان يحقد على الامبراطور لأنه كان قد تعرض للاسلام في بعض كتبه إلى الناصر، واعتقل مدى حين سفيراً نصرانياً كان الناصر قد أوفده إلى بلاطه ، فرأي أن يقابل تصرف الامبراطور بمثله ، ويعتقل سفيره أعني يوحنا حتى يتحقق من عواطفه ونياته . وبعث الناصر إلى الامبراطور سفيراً ، واختار لهذه السفارة قساً من رعاياه النصارى اتباعاً لتقليد جرى عليه الخلفاء في معظم سفاراتهم إلى القصور النصرانية . وكان اوتو يومئذ مشتغلا ببعض الحروب الداخلية ، فأبدى تساهلا في قبول وجهات نظر الخليفة ، ولم يثر من المجادلات مااعتاد أن يثيره ، وأكد صداقته لخليفة المسلمين . وعاد السفير إلى قرطبة يحمل إلى الناصر تحيات اوتو وتأكيداته الودية ، فارتاح الناصر لهـذه النتيجة ، وأذن باستقبال يوحنا سفير الامبراطور . واستقبل يوحنا استقبالا فخما ظهرت فيه عظمة البلاط الأموى ، وتحدث إلى الناصر عن مهمته وغاية سفارته . ولسنا نعرف ماذا كانت نتائج هذه السفارة ، لأن يوحنا لم يحدثنا عن ذلك في روايته ؛ ولكن المرجح أن وجهة النظر التي أبدتها حكومة قرطبة هي أنها ليست لهـا أية علاقة بالمستعمرات العربية في غاليس وسويسرة ، وأنها لا تتحمل تبعة أعمالها ، ولا تستطيع أن تتدخل لديها . وهو استنتاج يؤيده صمت الرواية العربية عن ذكر أخبار هذه المستعمرات ، مما يدل على أن حكومة قرطبة لم تكن تعنى كثيراً بشأنها ، وإن كانت بلا ريب تنظر إلى غزواتها في الأراضي النصرانية بعين العطف والتأييد

على أن الرواية الكنسية من جهة أخرى تحدثنا عما أفضى به الناصر إلى يوحنا من الملاحظات السياسية والادارية ؛ فقد بسط ليوحنا خططه في السياسة العامة ، وأنحى باللائمة على الامبراطور أوتو لأنه يضع ثقته في أشرافه ؛ ومثل هذه السياسة لا تزيد الاشراف إلا غروراً ، ثم تنتهي بهم في أواخر الأمر إلى العصيان والثورة . ولهذه الملاحظة السياسية التي توردها الرواية الكنسية عن الناصر أهمية خاصة ، وهي ليست إلا صدى لسياسة الخلافة الأموية وسياسة الناصر ذاته ؛ ذلك أن الناصر كان يعتمد في تنفيذ سياسته على طبقة الموالي والصقالبة ، ولا يثق بالاشراف وزعماء القبائل من العرب . وكان من آثار هـذه السياسة أن جعل الناصر بطانته من الصقالبة المستعربين ، ورفع كثيراً منهم إلى مناصب النفوذ والثقة في الحكومة وفي الجيش . وكان الناصر يخشى منافسة الرؤساء ذوى العصبية ويقصيهم عن كل نفوذ ، ويخضعهم لهؤلاء الصقالبة الذين اتخذهم في يده آلات طائعة تعبر عن خططه ورغباته . وكان لهذه السياسة أثرها في توطيد سلطان العرش ، والقضاء على سلطة الزعماء المحليين ، وعلى مطامع الرؤساء المتطلعين ، ولكنها كانت من جهة أخرى خطراً على العرش إذ عرضته لسخط الأشراف والزعماء العرب ، وخطراً على الجيش إذ كان سواد ضباطه من العرب الذين يعتزون بعصبيتهم ويسوءهم أن تضار هذه العصبية ويعتدى عليها . وظهر أثر هذه السياسة في أواخر حكم الناصر إذ ظهرت أعراض الوهن والانحلال في الجيش ؛ ثم ظهر خطرها على العرش فيما بعد إذ غدا عرضة لمطامع المتغلبين والمتنافسين

* * *

تلك هي قصة هذه السفارة الشهيرة التي وجهها الإمبراطور أوتو الكبير إلى عبد الرحمن الناصر ، وتشير الرواية الاسلامية إليها في عبارات موجزة[1] مما يدل على أنها لم تفطن إلى أهميتها السياسية والاجتماعية ، ذلك لأنها كانت سفارة من نوع خاص ، ولم تكن متعلقة بالشئون والعلائق الدبلوماسية العامة ، ولم تكن الإمبراطورية الألمانية الناشئة مشهورة في بلاط قرطبة شهرة الدولة البيزنطية أو مملكة الفرنج ، ولكن التفاصيل الشائقة التي تقدمها إلينا الرواية الكنسية تدلي بأهميتها وطرافتها ، وأول ما تدل عليه ما كان لبلاط قرطبة في عهد الناصر من الهيبة والنفوذ حتى في دول كألمانيا لم تكن تربطها بالأندلس مصالح أو علائق دبلوماسية مباشرة ؛ بيد أن أهم ما تدلى به هذه السفارة هو صفة الزعامة والارشاد التي كان يبدو بها بلاط قرطبة ، فقد رأينا الناصر يلقى درساً في السياسة والادارة على الأمبراطور أوتو ، وهي صفة كان في ظروف الأندلس يومئذ ما يبرر اتخاذها ، فقد كانت الأندلس عندئذ في أوج قوتها وعظمتها ، وكانت حكومة قرطبة في نظمها السياسية والادارية والاجتماعية نموذجاً لأعظم

(٢) راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٧١ وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤

وأرق حكومات العصور الوسطى ؛ وكانت الحضارة الأندلسية في سائر نواحي الحياة العامة والخاصة مضرب الأمثال في الروعة والبهاء ؛ وكانت نبراسا تمتد أضواؤه إلى أقاصي أوربا ؛ وكان للزهراء عاصمة الناصر وبلاطه في الأمم الشمالية شهرة سحرية ، حتى أن الراهبة السكسونية هروسويتا تغنت بجمالها وروعتها في قصائدها اللاتينية وأسمتها « زينة الدنيا » (١)

والخلاصة أن عظمة الأندلس يمكن أن تقرأ في هذه الصفحات الطوية من تاريخ العلائق الدبلوماسية بينها وبين الأمم الأوربية أكثر مما تقرأ في تاريخها الخاص : ففي هذه الصفحات نجد صوراً كثيرة مؤثرة من ذلك الاجلال الذي كانت تفرضه الأندلس إبان عظمتها على أمم الغرب والشمال

محمد عبد الله عنان

(١) دوزي — (الطبعة الأولى) ج ٣ ص ٩٠ — ٩١

الفهم الفلسفي
للثورة على الأخلاق
للأستاذ عبد العزيز عزت

سيدي الأستاذ الزيات

قرأنا بإعجاب في الرسالة الغراء ما كتبتموه ، وما سطره أساتذة الأدب العربي في الثورة على الأخلاق ، فأكبرنا فيكم نزعتكم إلى تأييد الفضيلة بهذا الأسلوب . وقد لاحظت بجوار ذلك غياباً نسبياً للفهم الفلسفي في ذلك الحوار الأدبي ، مع أن الموضوع يمت إلى صميم الفلسفة بصلة وصلات . لهذا دعاني الواجب الفلسفي أن أحرر هذه الكلمة لعلها تلقي بعض الضوء من هذه الناحية على هذا الموضوع :

فهم بعض الناس في مصر الثورة أنها النزاع بين وجهتي نظر متناقضتين ؛ فهناك أنصار القديم ، وهناك المجددون ؛ وهناك رجال الدين ، وهناك « المستغربون » ؛ وهناك أصحاب الفضيلة ، وهناك « المترذلون » . نزعة « التثنية » هذه Dualisme في تصور الشيء وضده ، هي نزعة « حربية » لا تليق بطبيعة التفكير جرتها علينا من بعيد الحضارة الفارسية التي يسودها مذهب زرادشت Zeroastre في كتابه الأفستا Avesta الذي يقول بتنازع قوة الشر « أهرمن » وقوة الخير « أهورا » . وكذلك جرتها علينا — فيما أرجح — من قريب مبادىء الثورة الفرنسية في تصور معنى الحرية والاستقلال ؛ فهناك ابن الوطن Le citoyen من ناحية ، وهناك الملك من ناحية أخرى ؛ ذلك لأن التفكير في ذاته وسيلة سلمية هادئة لخلق « التماسك » في عقلية الفرد ، وخلق التماسك في عقلية المجتمع ؛ وهذا التماسك هو الانتقال من حالة نوعية إلى حالة من نفس النوع يجوز لها التخصيص . فكل ثورة هي نهاية ظاهرة لحالة تطور هادئ سبقته ، وتضمنت هذه الثورة ؛ فهي إذاً حاضر لماض سبق قد مهد لها ، وهي حاضر كذلك لمستقبل يأتي ، تمهد هي له . الثورة في نظر الفيلسوف الألماني شيلنج Schelling لا يمكن أن تنفصل عن التطور وعناصره الثلاثة : الماضي ، والحاضر ، والمستقبل . (التطور هنا لا يقصد به نظرية داروين وسبنسر التي أثبت خطأها أستاذنا الفيلسوف لالاند Lalande في كتابه : « خداع التطور Les illusions évolutionistes » ؛ وإنما التطور الذي نزل من فلسفة أفلاطون وقالت به المدرسة الألمانية الحديثة وخاصة هيجل Hegel وشيلنج Schlling وهو التطور المنطقي لمظاهر التاريخ عامة) . فالثورة بهذا الفهم هي عنصر أكيد للسلام والتقدم

ولنأخذ مثلاً ثورة أفلاطون في العهد القديم . هذه الثورة كما يحدثنا الفيلسوف الألماني زلر Zeller في كتابه « فلسفة أهل اليونان » الجزء الأول — جمعت بين الفلسفة الطبيعية التي سادت التفكير اليوناني إلى ماقبل سقراط ، وجمعت الفلسفة المنطقية التي وجدت في عصره عند السوفسطائيين ، وكذلك الفلسفة الأخلاقية التي قال بها سقراط ، ففيها يلتئم عنصر الماضي وعنصر الحاضر وكذلك عنصر المستقبل ، لأن فلسفة أفلاطون ضمنت الحياة للفلسفات المنطقية والأخلاقية من بعده ، الأولى في تلميذه أرسطو والثانية في زعيم الرواقيين كريزيب Chrysippe ومن أخذ عن هذين الفيلسوفين إبان القرون الوسطى من عرب ، ورومان ،

ومسيحيين . وهكذا بعد أن كانت الفلسفة المنطقية من قبل أفلاطون سبيلاً للشعوذة والسفسطة والثرثرة ، أصبحت فلسفة محترمة تبغى إقامة العلم والبحث عن الحقيقة المجردة . كذلك بعد أن كانت الفلسفة الأخلاقية من قبله وسيلة لإخضاع الفرد فى المجتمع اليونانى أو الدولة الحاكمة ، أضحت سبيلاً لتحريره وتقوية إرادته

ومثل آخر فى العهد الحديث : ثورة كانت Kant الألمانى فهى قد جمعت بين تيار الماضى — بالنسبة إليه — وهو تيار فلسفة ديكارت Descartes حينما يتكلم عن ملكات العقل ، وتيار الحاضر — بالنسبة إليه — وهو تيار الفلسفة الإنجليزية الممثل فى فلسفة دافيد هيوم David Hume ، لأن (كانت) نفسه يقول إن هيوم «أيقظه من سباته الفكرى » . ونجد أثر هذا ظاهراً عند ما يتكلم كانت فى أثر الحواس فى نظرية المعرفة ؛ أما عنصر المستقبل فهو أن كانت Kant كفل الحياة من بعده لفلسفات تنطق تارة باسم العلم مثل فلسفات أوجست كنت ، وكورنو Cournot ، وفلسفات تنطق باسم المنطق والإلهيات مثل فلسفة لاشليه Lachelier ، وفلسفة بوترو Boutraux (اقرأ كتاب أستاذنا العلامة الكبير لاسباكس Lasbax أستاذ الفلسفة بجامعة كليرمون ، ورئيس المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية ، والسكرتير السابق للوزير بريان Brian ، وعنوانه : « المنطق وتطور العالم »

وعليه فالثورة فى التفكير هى عنصر للسلام أى التوفيق بين الماضى والحاضر الفكرى ، ومظهر للتقدم ، أى يجب أن تكفل خلق تيارات جديدة للفكر فى المستقبل .

أما الآن فلنتحدث عن الثورة « الأخلاقية » . الثورة فى مجال الأخلاق تتضمن الإقرار بوجود هذا المجال ، وتميزه فى نفس الوقت عن المجالات الأخرى كمجال النفس والاجتماع والمنطق ، والاقرار كذلك بأن له طبيعة خاصة وأصولا للتفكير فيه ، وإلا أصبح البحث عبثاً ، والجدال رغاء ، وقلبت الأوضاع ، وأنكر التاريخ ، وجحدت المجهودات القائمة للفلاسفة . فنحن إذاً لا نوجه كلامنا إلى أصحاب الرذيلة الذين بخسوا الفضائل حقها .

ولكنا نوجهه إلى الأساتذة أصحاب الفضيلة فنقول :

الثورة فى مجال الأخلاق لا تبنى على إنكار الفضائل ، وتجاهل أمر الثورات الأخلاقية فى تطور التفكير البشرى ؛ ولكن على علاقة الفضيلة بالرذيلة أولا ، وعلى استعراض التصور النوعى للفضيلة فى الثورات الأخلاقية

(١) أما عن تحديد علاقة الفضيلة بالرذيلة فلا يمكن البحث عنها خارج فلسفة الرواقيين ، لأنه أعظم مبدأ أخلاقى وجد إلى الآن فى تطور التفكير الإنسانى ، وذلك لأنه قضى على مبادئ الأخلاق التى تقدمته بتعاليمه السامية . فبينما سقراط يجتهد أن يتخذ من الأخلاق سبيلا لتقييد حرية الفرد وإخضاعه للدولة الحاكمة فى المجتمع اليونانى ، نرى أفلاطون يفترض السوء فى طبيعة الإنسان ويجتهد بعد ذلك أن يرفعه إلى قداسة عالم المثل . كذلك أرسطو فهو يميز وينوع بين خلق الله فيقر الرق والاستعباد ، ويضع أخلاقه للسادة من الناس ، والأرستقراطية التى قضت مباشرة على مبادئه وأضحى فكره ميتاً بعد حروب الاسكندر الأكبر ، لأن المجتمع اليونانى فى ذلك الزمان أصبح فى حاجة ماسة لمن يخاطبه بلغة قليلة التجريد — أقرب إلى الواقع منها إلى الخيال ، يتحقق خلالها ذلك الفهم الواسع الذى أدركه اليونانيون باحتكاكهم بعد تلك الحروب بسائر الأمم الأخرى ، لهذا لاقت تعاليم الرواقيين نجاحاً عظيما وخاصة تعاليم كريزيب Chrysippe (اقرأ كتاب أستاذنا أميل برهييه Emile Bréhier وعنوانه كريزيب فى مجموعة ألكان Alcan لكبار الفلاسفة) لأنهـا ألغت الرق ، وجعلت الناس سواسية كأسنان المشط أمام القانون الأخلاقى ، وافترضت الخير فى طبيعة الإنسان . وأهمية هـذا المذهب لا تقف عند هذا الحد لأنه ساد بعد ذلك كل العالم الرومانى ، وعالم القرون الوسطى فى أوروبا خلال آباء الكنيسة . والأهم من ذلك أخيراً أن زعماء الفكر الحديث عندما كتبوا فى الأخلاق تأثروا بالرواقيين ، فمثلا ديكارت فى خطاباته مع البرنسيس اليزابث ، وسبينوزا Spinoza فى كتاب « الأخلاق » ، وكانت Kant فى كتابه عن الأخلاق

فالرواقيون آباء الأخلاق لم ينكروا فى ثورتهم الفضائل ولم يبخسوا كذلك الرذائل حقها وما لها من أهمية فى الحياة ؛ غير

أنه يستحيل فى نظرهم فصل الاثنين عن بعضهما ، لأن الإنسان مركب من روح وجسم — وهى البداهة كلها — فله شهوات تدعو إلى الرذيلة ، وله غايات روحية سامية يريد تحقيقها ؛ غير أن الشهوات والميل إلى الرذيلة ليست بطبيعية فى الإنسان ، فالإنسان كأساس خـيِّر بطبعه ، ولكن الحياة الخارجية المادية ومغرياتها هى التى تفسد عليه داخليته ونفسه الطاهرة . ولما كان أغلب الناس لا يمكنهم التضحية بمغريات الحياة الخارجية ، اضطر الرواقيون ألا يتجاهلوا أمر الرذيلة وأثرها فى التخلق فحسبوا لها حساباً بل جعلوا منها ضرورة لازمة للفضيلة ؛ ويقدمون لذلك ثلاث حجج، (يجدها القارئ فى كتاب أستاذنا برهييه Bréhier والأستاذ بيفان Bevan)

أولا — حجة بالمقارنة ؛ فالرذيلة تابعة للفضيلة وشرط أساسى لها ؛ ويضربون لذلك مثلا جمال رأس الانسان الذى يتضمن فى نفس الوقت نوعاً من الضعف هو رقة عظامه وتعرضه فى أي لحظة للأخطار الطارئة ، فاذن ليس هناك جمال خالص من ضعف أو قبح يشوبه ، كذلك (ut...sic) ليس هناك فضيلة خالصة ولا بد للرذيلة أن تلازمها فهى ضرورية لها

ثانياً — حجة منطقية : تتلخص فى أن النقيضين متضامنان ؛ فالخير يتضمن الشر فى تصوره ، والحسن يتضمن القبيح فى إدراكه ، والفضيلة تتضمن الرذيلة وهلم جرًّا ...

ثالثاً — حجة أخلاقية : يقول الرواقيون : الرذيلة ليست من طبيعة مغايرة للفضيلة ، فكلاهما من نوع واحد . وليست الرذيلة هى حرباً على الفضيلة ، وإنما هى فضيلة ضالة ، والعقل فى تصورها وفعلها خاطىء ، ومهمة الأخلاق هى العودة بما ضل إلى الطبيعة الخيرة الأولى

هـذا الفهم للعلاقة بين الفضيلة والرذيلة اضطر الرواقيين إلى تصور نوعين من الأخلاق : أخلاق لا يصح أن نسميها « خارجية » نجدها فى كتاب « الواجبات » لشيشرون ، وهى تختص بمغريات الحياة الجارية وتنبنى على ما يجب فعله وما لا يجب أن يفعله الانسان فى يومه ، والتحقير من أهمية الماديات لتغير قيمتها بتغير الأشخاص والأزمان والأصقاع ، فهى أشياء عارضة ، وينبغى الزهد فيها ، والاعراض عنها ، فهى أخلاق تهتم بتخفيف وطأة الرذيلة

وأخلاق تسميها « داخلية » تبنى على رياضة الارادة ، أساسها ضبط النفس وغرضها الوصول إلى الخير المطلق ، ونجدها فى كتاب شيشرون المسمى De finibus ، وهي مايصح تسميتها كذلك بلغة العلم الحديث « أخلاق نظرية » ترمى إلى خلق الانسجام بين إرادة الوجود فى الفرد ، وإرادة الوجود فى العالم ، وإرادة الوجود فى المجتمع

كذلك الاستعراض النوعى للفضائل فى ثورات الأخلاق ، يدل دلالة واضحة على أن هذه الثورات لم تكن حرباً على الفضيلة ولم تكن للحط من قيمة الانسان إلى قدر هو أرفع منه ؛ وإنما كانت برداً وسلاماً عليها ، ترسم سبل الوصول إليها وامكان تحقيقها : فالثورة اليونانية الأخلاقية كما يذكر الفيلسوف بوتروه فى كتابه (مسائل فى الأخلاق والتربية) كانت ترمى إلى رفع الانسان إلى القداسة العقلية بحيث يصبح العالم بيتاً للانسان والآلهة (أنظر كذلك شيشرون «طبيعة الآلهة») . ويتحقق حلم الرواقيين فى خلق مدينة العقلاء فيسود السلام على الانسانية ، باحسان كل إنسان إلى أخيه فلا يبقى هناك فضل « ليونانى » على أجنبى

والثورة الدينية فى الأخلاق : إبان القرون الوسطى ويمثلها فيلون الاسكندرى فى اليهودية ، والغزالى فى الإسلام ، والقديس أوغسطين فى المسيحية ، تتلخص كلها فى تلك النزعة القديمة الشرقية التى اختص بها الجنس السامى وهى فكرة الخطيئة الأولى وما تتطلبه من التحلى بالفضائل كوسيلة لإنقاذ خلق الله من وصمتهم والعود بهم إلى جنات الخلد والنعيم (أنظر كتاب مُنْك Munk « فى الفلسفة العربية واليهودية » ، وكذلك كتاب أستاذنا العلامة جلسن Gilson بالكليج دي فرانس وعنوانه : «المسيحية والفلسفة »

ثم جاءت بعد ذلك الثورة الحديثة فى الأخلاق تقيم الفضائل وتناصرها ولكنها تفهمها بشكل آخر جديد ، فبينا نجد القداسة العقلية عند اليونان ، والقداسة الربانية عند اليهود والمسلمين والنصارى ، نجد القداسة العملية النفعية عند الانجليز فى شخص هبز Hobbs ومدرسة بنتام Bentham ، وميل mill ، وسبنسر Spencer (أنظر جيو Guyau الاخلاق عند الانجليز وأيضاً سبنسر التطور والأخلاق

أصبحت الأخلاق عنـدهم تهتم بالحياة الجارية وتتأثر بالفهم الرياضى فأضحت « حساباً للذات » من وجهات الكم والكيف ، والبقاء ، والزوال ؛ وأصبح الفرد وأنانيته محوراً للأخلاق . ظهرت ثورة أخلاقية جديدة فى ألمانيا هى ثورة كانت Kant تذكرنا بآراء الرواقيين فى العهد القديم لأنها ترتكز على فكرة الواجب المجرد عن الغايات النفعيـة والأغراض L'idée du devoir العارضة ، وأن الإنسان فى تخلقه يجب أن ينظر إلى ثلاثة أفكار : أولاً : أن يكون التخلق واحداً لكل الناس . ثانياً : أن يحترم الإنسانية فى شخصه . ثالثاً : أن يتخلق وأن يلى على نفسه تخلقه دون أن يخضع فى ذلك إلى مؤثر ما . لهذا كانت نهاية مبدئه الإرادة الحرة (أنظر دلبوس Delbos فلسفة كانت Kant

ونحن بعد هذا لا نريد أن نعدد الأمثلة أكثر من ذلك لنثبت أن للأخلاق والثورة عليها أو فيها طبائع وأصولا ومبادئ لا تبرر مطلقاً ماذهب إليه الثائرون . لهذا غضبت النفوس الكريمة وناصرت الفضائل التى هى السبيل الوحيد لوجود الضرر كمنكر ، لأن ديكارت لا يفصل التخلق عن المعرفة والسبيل الوحيد كذلك لوجود الفرد اجتماعياً ، لأن دوركيم لا يؤمن بقيمة الفرد إلا إذا آمنت الناس من حوله بما ينطق ويفكر . فما كتبه الأستاذ الزيات ، وعزام ، والخولى هو لسان المجتمع فى هذا الموضوع المعبر الصادق عن المشاعر الخفية التى تكنها نفوس المصريين أجمعين من حولهم ، فليكفر إذاً هؤلاء الثائرون — اعتباطاً — عن آرائهم ، فالرجوع إلى الحق فضيلة

عبد العزيز عزت
خريج جامعات القاهرة وباريس ، وكليرمون
عضو بعثة الجامعة المصرية لدكتوراه الدولة

فلسفة التربيـــــة

كما يراها فلاسفة الغرب

للأستاذ محمد حسن ظاظا

— ٧ —

« إذا أمسك الله تعالى بالحق فى يمينه ، وبالدافع الدائم إليه فى يساره ، ثم أمرنى بالاختيار : لسقطت على يده اليسرى وقلت اعطنى هذا أيها الأب الأقدس ، لأن الحق الخالص ليس إلا لك »

ليسنج Lessing

« ... وثقافة الانسان لا تقدر بمقدار ما قرأ من الكتب وما تعلم من العلوم والآداب ، ولكن بمقدار ما أفاده العلم ، وبمقدار علو المستوى الذى يشرف منه على العالم ، وبمقدار ما أوحت إليه الفنون من سمو فى الشعور وتذوق للجمال »

أحمد أمين

المنهج والطريقة

رأيت فى المقال السابق كيف تمتد يد « الديمقراطية » إلى « المعلم » و « المدرسة » و « الطالب » لتصلح من شأن التربية ما قد أفسدته النظم البالية والتقاليد الرثة ، وسترى اليوم ماينبغى أن يكون عليه المنهج وطريقة تدريسه حتى لايكون الأمر مجرد « إمساك عصى » لا أكثر ولا أقل ..!

يقسم الأستاذ « هورن »[1] العلوم إلى خمس طوائف : فنية ، وتشمل : العمارة والحفر والتصوير والموسيقى والأدب والدين ؛ وإرادية وتشمل : النظم والأخلاق والقوانين ؛ وعلمية عقلية وتشمل : المنطق والميتافيزيقا والجمال واللغة والأخلاق النظرية ؛ وعلمية مادية غير عضوية وتشمل : الطبيعة والجيلوجيا والجغرافيا والفسيوجرافيا والفلك والمعادن والكيمياء ؛ وعلمية مادية عضوية وتشمل : الحياة والنبات والحيوان والفسيولوجيا والتشريح وتاريخ الإنسان والاجتماع والاقتصاد

وأنت ترى أن كلا من هذه العلوم يعالج إحدى نواحى الكون معالجة خاصة ، وأنها جميعاً ذات قيمة «ذاتية» كما يقول«هربارت» ولكنا فى ناحية « الثقافة العامة » على الخصوص مضطرون إلى التفريق بينها فى الدرجة والضرورة فلا نفضل منها إلا ما يتفق

(١) انظر كتابه Horn Aphilos, of Eaucation

وغايتنا . ومن هنا كان ذلك الخلاف الهائل فى آراء علماء التربية وأساليبهم ؛ « فهربارت » يطالب بقيمة المادة « الذاتية » بصرف النظر عن نتائجها وآثارها ، و « ديوى » يصر على اختيار المواد « النفعية » وفقاً لمذهبه العملى ، و« ريدجر Ruediger » القائل بفكرة الملاءمة مع البيئة[1] يعطينا قيماً آلية وأخرى ثقافية . فالأولى منها التحضيرى كمواد القراءة والكتابة ، ومنها العملى كمواد اللعب ، ومنها « الاجتماعى » كمواد الأجناس والأديان[2] والأخلاق والتاريخ والأدب ، ومنها « التقليـدى » كالخطابة والجدل ؛ أماالثانية — الثقافية — وهىأرقى القيم جميعاً ، فتدخل فيها المواد التى تحرر العقل وتهذب العواطف وترقى بالشعور ، كالفلسفة الخالصة والأدب المجرد

هـذا وقد رتب الفيلسوف « سبنسر » المواد تبعاً لأهميتها وضرورتها فجعل علوم « الصحة » على رأسها ، وتليها علوم « التربية » ثم علوم « السياسة والاجتماع » ثم علوم « الفراغ » أى « الفنون » ... !

أما « رسل » فقد فضل المواد التى « تبقى وتحفظ قوة الخلق والتضلع والحيوية فى الفرد ، وتعينه على التمتع بالحياة ذاتها

وأما الأستاذ « أمير بقطر » فيقول بانتخاب المواد التى تفتح على الطالب أكثر من باب واحد[3]

ولقد أدلى الأستاذ « أحمد أمين » برأيه فى الموضوع فقال[4] « إذا كانت قيمة الثقافة الذاتيـة هى أبداً فى مقدار ماترفعه فى المثقف من وجهة النظر إلى الأشياء وتقويمها قيما جديدة أقرب إلى الصحة ، أسلمنا ذلك إلىنتائج خطيرة ، فدين خير من دين بمقدار ما تحاول تعاليمه من رفع مستوى النظر إلى الله وإلى الحياة ، وعلم خير من علم باعتبار ما يؤدى إليه من نظر راق صحيح . وثقافة الانسان لا تقدر بمقدار ما قرأ من الكتب وما تعلم من العلوم والآداب ، ولكن بمقدار ما أفاده العلم وبمقدار علو المستوى الذى يشرف منه على العالم ، وبمقدار ما أوحت إليه الفنون من سمو فى الشعور وتذوق للجمال

(١) ويكون ذلك بالتقدير المتزايد للبيئة مع الانسجام والسيادة والقدرة على الانتفاع بقوى الفرد وجعلها نامية فعالة منتجة

(٢) ولسنا نوافق الأستاذ « ريدجر » فى جعله قيمة الدين آلية فحسب

(٣) لا أذكر مع الأسف عدد « مجلة التربيـة الحديثة » الذى جاء به هذا الرأى

(٤) أنظر مجلة الرسالة السنة الثانية عدد ٢٣ مقال « قيمة الثقافة »

وأنت ترى معى أن تلك النظرة من الأستاذ حصيفة كل الحصافة وبعيدة الغور وسامية المنطق ، وأن نظرة « ديوى » مشوبة بالنفع العملى الذى يشوه فلسفته الخاصة ، وأن ترتيب « سبنسر » يقلل من شأن تلك المتعة « العقلية والفنية » التى جعلها « هورن » جوهر الثقافة الحقيقية

ومهما يكن من شىء فما دامت غاية التربية هى خلق الحياة الاجتماعية المثلى . وأعنى بها تلك الحياة « التى يستطيع الفرد أن يجد فيهـا مجالاً لتحقيق مستلزمات حياته الأدبية والعقلية والروحية والمادية على أتم وجه بحيث يتسنى له أن ينمو ويتقدم أخلاقيا وروحياً ومادياً وعقلياً نمواً تتطلبه طبيعته وتستطيع أن تحققه الظروف مع البيئة [(١)] » أقول ما دامت تلك هى غاية التربية فيجب أن نحاول تطبيق ذلك على مواد المنهج وطريقة تدريسها

« فالمادة » يجب أن تكون تامة الوفاء بما تتطلبه « المرحلة » البدنية والنفسية من نمو ، ويجب أن تكون محبوبة للطفل شائقة لديه لا هى بالسهلة ولا هى بالصعبة ، ويجب أن تكون مستمدة من الحياة ومرنة تلائم الاختلاف بين عقول الأفراد ، ويجب أن تظهر للطفل كأنها مادته الضرورية الخاصة ، ويجب أخيراً أن تكون « بحيث ترتفع به إلى مستوى أرقى فى العمل والشعور لا مجرد إنهاك عصبى [(٢)] »

وإذا كان الناقد الألمانى « ليسنغ » يقول إنه يفضل « الدافع الدائم للحق » ما دام الحق الخالص ليس لغيره سبحانه وتعالى ، فإننا يجب أن نتجنب حشو المنهج بالمواد ونكتفى بإثارة حب البحث فى الطالب ناظرين دائماً إلى الكيف لا إلى الكم حتى يكون المتعلم دائماً ذا عقل خصب لا يهرم بكبر السن ، ولا ينوء تحت أثقال معلومات مهوشة ، ولا ينى يبحث ويطلع بعد الدراسة محتفظاً بربيع الحياة

وما دامت دراسة « الطبيعة » ذاتها وسيلة للاحتفاظ بالحياة وللمتعة فيها والرفاهية ، فلا تعارض إذاً بين الدراسات الطبيعية العلمية والدراسات النفسية الفنية ، وإذاً فليكن فى المنهج ثقافة عامة توسع الإدراك وتدقق الفهم ، وتاريخ وجغرافيا يزيدان فى معنى التجارب الإنسانية وثروتها ، وعلوم طبيعية تفتح مجالاً للعقل وتؤدى به إلى الصيغ والقوانين الكلية ، ولعب يجعل الدراسة شائقة وينفس عن الغرائز ، وفلسفة خلقية وميتافيزيكية واجتماعية توطد من مركز الناشىء فى المجتمع والكون وتفهمه علاقة الأرض بالسماء .. !

أما الطريقة فلا تكاد تقل خطورة عن المادة ، بل إن المستحدثات فى التربية لتنصب عليها بوجه خاص ، ذلك أن دراسة علم النفس للطفل وقواه قد كشفت عن أصول أساسية ينبغى أن يتبعها « المعلم » فى تدريسه ، ومن هذه الأصول ألا تكون الطريقة « قياسية » إلا فى آخر مراحل التدريب ؛ أعنى أنها يجب أن تكون استقرائية قائمة على المشاهدة بحيث تجعل الطفل فى حالة « اختبار » حقيقية يرغب فيها لذاتها ، وتنبه فكره إلى المسائل التى يعالجها ، وتتيح له القدرة على تدبير هذه المسائل بمعرفته وملاحظته ، وتجعله مسئولاً عن حل الحلول التى تعرض له بطريقة منظمة ، وتعطيه أخيراً الفرصة التى يختبر بها صحة فروضه ويتأكد من صحتها

هذا إلى وجوب تفهيم الطفل قيمة ما يدرس ومدى نفعه فى الحياة العملية والمعنوية ليزداد جهده فيه وإقباله عليه ، وليكون قلبه معه دائماً فى عمله ، وإلى وجوب وقوف المدرس بين بين [(١)] فلا يترك الطفل يمضى إلى إشباع ميوله دون رقابة ، ولا يملى عليه ما يريد إملاء قسريا ، بل يتبين ما يتحفز فيه من غرائز وميول ويقدم له ما يساعده على ما يريد

ولما كانت الطريقة هى ترتيب المـادة بحيث تكون أكثر فاعلية فى الاستعمال فإنها لا تكاد تخالف المادة قط . أليس من « يأكل » يتناول طعاماً هو « الأكل » نفسه ؟ [(٢)]

وقد نجم من فصل الطريقة عن المادة قلة فرص التجاريب أمام الطفل ، وسوء فهم النظام والشوق ، والعناية القينة بالحفظ وحده ، وجعل عملية التعليم ميكانيكية عديمة الروح ، فأدى الأمر إلى تخشب آلى « بسبب الفصل بين العقل وبين النشاط الذى له من خلفه غرض يدفعه [(٣)] »

أفرأيت هذا كله ؟ أفلا حظت ما فيه من قوة ونفع وسمو ؟ إنهم هكذا يفكرون فى أمريكا وكذلك يطبقون [(٤)] ...

(يتبع) محمد حسنى ظاظا

مدرس الفلسفة بالمدارس الثانوية

(١) انظر مجلة الرسالة السنة الثانية عدد ٢٣ مقال قيمة الثقافة

(٢) انظر كتاب الأستاذ « ديوى » Democracy and Educ وقد لخصته الآنسة المربية إحسان القوصى فى رسالة صغيرة

(١) انظر ... A Source Book

(٢) انظر التربية والأخلاق للاستاذ فام (٣) من كلام للاستاذ ديوى

(٤) ومن حسن الحظ أن مصر قد بدأت تأخذ بذلك الاتجاه كما لوحظ فى الفصول التجريبية ومعهد فاروق الأول

بين القاهرة واستنبول

للدكتور عبد الوهاب عزام

— ٥ —

متاحف طوب قبوسراى

يا أخى صاحب الرسالة

سلام عليك

وقفت بك فى الرسالة السابقة على عرش الشـاه إسماعيل الصفدى . وجدير أن نطيل الوقوف عند هذا العرش الذى بذلت الصناعة وسمها فى هندسته وتذهيبه وترصيعه وتلوينه ، ولاءمت فيه يد الإتقان بين الذهب والمينا والزمرد والياقوت ، وألفت بين ألوانها تأليفاً متآلفاً مرضياً ، وقد أرى فيه الذكر تلألأ تلألؤ الجوهر



عرش إسماعيل فى وقاية من زجاج ويرى فى وسطها

وقفت عند هذا العرش أذكر الشاه إسماعيل هذا الملك الجبار الذى نشأ فى زلازل الحادثات حتى ملك أزمة دولة مبتدأة وهو لم يبلغ الحلم ؛ وما لبث أن مد سلطانه ما بين العراق إلى الهند ، ثم أورث أبناءه دولة لا تزال آثارها شاهدة بمآثرهم ، ناطقة بعظمة ملكهم ، مذكرة بما طوى الدهر من سلطانهم

هذا العرش ما خطبه ، ما باله وخزائن سلاطين آل عثمان ؟ هنالك ذكرت جلاد سليم وإسماعيل ، وذكرت موقعة جالدران الوقعة التى كادت تذهب بدولة إسماعيل الناشئة ؛ لو لا أن عاقت سليماً العوائق . وجالدران وأرمديد وشمالى أزربيجان اصطفت فيه جنود سليم وجنود إسماعيل سنة ٩٢٥ من الهجرة . قسم سليم جنوده ، وجعل الانكشارية فى القلب واتخذ مكانه خلفهم ، وجعل المدافع وراء الجناحين وشد بعضها إلى بعض بالسلاسل . وصف إسماعيل جنوده ، وتولى قيادة الجناح الأيمن مائة وخمسون ألف جندى صمدت لمثلها ؛ فانظر هذه الحرب المتأججة يضرمها ثلاثمائة ألف !

ويحمل إسماعيل الفتى الشجاع ، معتزاً بجنده ، مفتخراً بنسبه العلوىّ ، مصمماً أن ينتصر أو يقتـل ، ويشق جناح العثمانيين الأيسر ويحسب أن النصر مقبل عليه

وتظاهر جناح العثمانيين الأيمن بالهزيمة وانقسم ، فتحمل ميسرة اسماعيل وترمى بنفسها فى الفرجة بين القسمين فإذا هى أمام المدافع ، وإذا النيران تأخذها من كل جانب . لاتتبدل الحال ويواتى العثمانيين الظفر

ويسقط اسماعيل عن جواده جريحاً وينجيه من الأسر القريب الفرار إلى تبريز

ويادر سليم يجمع الغنائم ، وزهى بمـا نال من ظفر على عدوه الجبار

وسليم يدخل تبريز بعد ثلاثةعشر يوماً دون حرب ، وكانت تبريز يومئذ دار الملك وبها خزانة اسماعيل قد جمع فيها ما أخذ من التيموريين وغيرهم من الأمراء الذين غلبوا على ممالكهم . وبينما يدبر للاستيلاء على ملك اسماعيل كله يرى بين جنوده أمارات العصيان فيرجع أدراجه قانعاً بما أحرز من نصر وما ملك من بلاده . ثم لم يقم فى تبريز إلا ثمانية عشر يوماً

هذا العرش مما غنم سليم فى هذه الحرب الضروس

وذكرت حينئذ الرجل الكبير قانصوه الغورى الذى خشى صولة سليم فمالأ الشاه اسماعيل فأفسد ما بينه وبين العثمانيين

وتتابعت الأحداث حتى كانت وقعة مرج دابق فى رجب سنة ٩٢٢ قبل وقعة جالدران بسنين ثلاث. وتصورت سليا يحرز نصراً بعد آخر ويطوي مملكة بعد مملكة بجنده وعدده، ولا سيا هذه المدافع التى لم يتسلح بها محاربوه

وعدت أتذكر ما أعقبتْ عداوة سليم وإسماعيل من عداوة بين المسلمين، وما أثارا من ضغينة بين أهل السنة والشيعة، وما كان القتال إلا على السلطان والجاه وإنما كانت المذاهب تعلة

ثم تمادت الفكر وتوالت الذكر فأخذت أقيس الرجال الثلاثة واحداً بآخر، وأتذكر ما كان منهم فى السياسة والعلم والأدب. وقلت: هؤلاء الثلاثة الذين سيطروا على وسط البلاد الاسلامية كانوا يمثلون ثقافة الأمراء المسلمين. وفيما أثر عن ثلاثتهم من شعر نماذج من أدب أمرائنا فى القرن العاشر الهجرى. وهممت أن أكتب إليك فى هذا ياصاحب الرسالة ثم تذكرت أنى أصف آثاراً فى متحف، وأن الكلام على قانصوه وإسماعيل وسليم جدير أن يستأثر بمقال أو أكثر

ولعلى أجد لذلك فرصة بعد

عبد الوهاب عزام



للأستاذ توفيق الحكيم

ما أطول حديثنا الصامت فى برجنا العاجى! هذا البرج الذى يحرسه «تنين» الوحدة! وما أكثر تلك الخواطر التى تمر برؤوسنا أحياناً كالطيور العابرة دون أن نقتنص منها شيئاً! هنا داخل هذا الإطار وبين هذا السياج سأحبس ما يقع منها تحت ذاكرتى. وإن خواطرى لكثيرة، لأن أوقات عزلتى طويلة؛ وليس لى علم بلعب النرد ولا غيره من وسائل قتل الوقت، فالوقت عندى هو الذى يقتلنى لأنى لا أعرف كيف أقتله. ولقد حاولوا كثيراً فى صباى أن يعلمونى تلك الألعاب التى تلهى الناس عن أنفسهم فى أوقات الفراغ، ولكنى كنت أنسى دائماً فى المساء ما علمونى إياه فى الصباح؛ ولم ينفع فى أمرى تعليم ولا تفهيم. وخرجت من عهود الصبا دون أن أحذق لعبة أو أحجية. شىء واحد كان يلهينى ويسرنى، وقد كان عندى بمثابة النرد والأحاجى: ذلك هو الجدل حول فكرة من الأفكار. ولكم أتعبت كثيراً من أولئك الذين كانوا يلعبون معى هذا الضرب من الشطرنج فى وقت من الأوقات؛ لقد كنت أضيع عليهم نهاراً بأكمله دون أن أملّ؛ وإن رؤوسهم لتكل فما أرحمهم ولا أرحم نفسى. إن حب التفكير لنقمة. آه لو علم الناس كيف يعيش الأدباء ورجال الفكر؟! إذن فليعلموا أن القدر يوم دفع الأدباء إلى الوجود صاح فيهم ساخراً: «اذهبوا فإن لكم الفكر، ولكن ...» ولم يتم كلامه وابتسم ابتسامة هى أبلغ من التعبير

نعم. مامن أديب أو مفكر إلا أدرك أخيراً بعد أن قطع شوطاً من الحياة أن شيئاً آخر ربما كان أجدى عليه من الفكر قد سُلب منه إلى الأبد! إنّا نحسد أحياناً بقية الناس. وإنى لأتصور القدر وهو يشيع الآخرين إلى باب الوجود فيقول لهم: «اذهبوا فإن لكم الحياة ... ولكن ...»

أجل إنه يبتسم لهم كذلك عين ابتسامته الساخرة، ولكن هؤلاء الناس لا يفهمون مطلقاً أن القدر قد سلبهم شيئاً. وهنا الفرق بيننا وبين بقية الناس: إننا نحن رجال الفكر ندرك تمام الإدراك ما سُرق منا وما فقدناه؛ أما الآخرون فلا يعلمون. وهذا سر عذابنا نحن

والآن وقد تكشفت لنا حياتنا الفكرية عن برج مرتفع لاخروج لنا منه؛ برج يملؤه السكون ولا نسمع فيه غير صدى أصواتنا الضائعة؛ فلنتكلم إذن بين تلك الجدران. فإن رجع الصدى يؤنس على الأقل وحشتنا

توفيق الحكيم

أناشيد صوفية

جيتانجالى

للشاعر الفيلسوف طاغور

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

— ٧٢ —

إننى أبرأ من الاستسلام ، وأنا أستشعر الحرية تحوطنى فى لذة وطرب

وأنت — دائماً — تفرغ فى كأسى من رحيقك العطر ذى الألوان رشفةً سائغة ، فتفعم هذا الإناء الأرضى

إن دنياى ستشعل من نورك مصابيحها العديدة ، وتضمها أمام محراب معبدك

لا ، لن أغلق أبواب حواسى ، فإن لذاذات البصر والسمع واللمس تحمل فى ثناياها نشوة منك

نعم ، إن أوهامى ستحترق فى شعلة من مرح ، وإن رغباتى ستتفتح عن ثمرة من حب

— ٧٣ —

لقد خبا ضوء النهار وانتشرت عتمة الغسق على الأرض ، وآن لى أن أنطلق إلى الغدير لأملأ جرتى

ونسمات الليل تشجيها موسيقا الموج الحزينة . آه ، إنها تنادينى لأندفع فى أضعاف الظلماء ، وما فى الطريق الموحش من عابر سبيل ، والريح تزف زفيفاً ، وصوت خرير الموج يتصاعد هائجاً من جوف النهر

لست أدرى إذا كنت سأعود إلى الدار ؟ ولست أدرى من عساى أن ألقى على الطريق . إن هناك فى القارب الذى يرسو فى الناحية الضحلة من النهر ، رجلاً مجهولاً يعزف على قيثاره

— ٧٤ —

إن آلاءك تفيض علينا فتسد مآربنا ، ثم ترتد إليك وما نقصت شيئاً

فالنهر يجد كل يوم عملاً ، وهو يندفع إلى الناية بين الحقول والقرى ، ولكن مجراه المستمر يهفو نحو قدميك ليغسلهما

والزهر يتأرج فيملأ الهواء عطراً شذياً ، غير أن غايته أن يقدم نفسه إليك

إن الاندفاع فى عبادتك لن يجدب العالم

ومن نفثات الشعراء خذ ما يحلو لهم ، ولكنك ما تزال غرضهم الأسمى الذى إليه يشيرون

— ٧٥ —

وعلى مر الأيام ، أفتسمح لى — يا إله الحياة — أن أقف بإزائك وجهاً لوجه ؟ وفى خضوعى وذلتى ، أفأقف بإزائك — يا إله الكون — وجهاً لوجه ؟

وتحت سمائك العظيمة ، فى وحدتى وسكونى وذلة قلبى ، أفأقف بإزائك وجهاً لوجه ؟

وفى دنياك الصاخبة وهى تضطرب بالكد والتناحر ، وبين الزمر المتدافعة ، أفأقف بإزائك وجهاً لوجه ؟

وحين ينتهى عملى فى هذه الدنيا أفأقف — يا ملك الملوك — وحيداً صامتاً بإزائك وجهاً لوجه ؟

— ٧٦ —

لقد عرفتك إلهاً لى ثم تنحيت جانباً ... فأنا لم أعرفك أخاً فأندفع إليك ، ولا أباً فأنحنى أمام قدميك ، ولا صديقاً فأشد على يديك .

ولم أقف حيث أراك تهبط فتهدى نفسك إلىّ ، فأضمك إلى صدرى وأتخذك رفيقاً

إنك أخ بين إخوتى غير أنى لا أعيرهم انتباها ، فأنا لا أقسم بينكم حبى ، ولكنى أخصك بجميع قلبى

فى حالَىْ نعيمى وبؤسى لا أسكن إلى رجل بل أعتمد عليك أنت . إننى لأزوى وفى نفسى أن أنزع عنى ثوب الحياة لأننى لا أريد أن أغتمر فى خضمها

— ٧٧ —

فى بدء الكون ، والكواكب تسطع — أول ما سطعت —

في تألق ، إجتمع الآلهة في السماء ، وانطلقوا يغنّون « أوه ، ما أجمل صورة الكمال ! ما ألذ الطرب المحض ! »

وعلى حين فجأة دوّى صوت من بينهم « إنه ليخيل إليّ أن هناك نقصاً . إن إحدى حلقات الضوء مفقودة ؛ إن كوكباً قد ضاع ! »

فانقطع وتر القيثارة الذهبي ، وأمسكوا جميعاً عن الغناء ؛ ثم صاحوا في فزع « نعم ، إن الكوكب المفقود أشد الكواكب لمعاناً ، لقد كان زينة السماء ! »

وراحوا — منذ ذلك الحين — يفتشون عنه في دأب ونشاط ، وغمرتهم الصيحة ، ففقدت الدنيا — في ثناياها — بهجتها الوحيدة !

وفي هدأة الليل وسكونه تبادلت الكواكب الابتسامات والهمسات « عبثاً تفتشون ! إن الكمال التام فوق كل شيء ! »

— ٧٨ —

ليست غاية جهدي أن ألقاك على الأرض ، فإذا أريد أن أستشعر — دائماً — فقد النظر إليك ... ولكن لا تمح ذكراك من قلبي لحظة واحدة ، ثم ذرني أحمل آلام الحزن لفقدك في غفلتي وفي يقظتي

وحين أقضي أيامي بين الحشد في سوق الحياة فتمتلىء يداي بالكسب ، استلبني من نشوة الربح ؛ ولا تمح ذكراك من قلبي لحظة واحدة ، ثم ذرني أحمل آلام الحزن لفقدك في غفلتي وفي يقظتي

وحين أجلس على جانب الطريق أستجم من أثر الأين والبهر ، فأنشر فراشي على الثرى ؛ ألق في روعي أن رحلتي ماتزال طويلة ؛ ولا تمح من قلبي ذكراك لحظة واحدة ، ثم ذرني أحمل آلام الحزن لفقدك في غفلتي وفي يقظتي

وحين تتزين حجراتي وتتصاعد أنغام القيثار وترتفع رنات الضحك ، دعني أشعر كأنني لم أدعك إلى داري ... ولا تمح ذكراك من قلبي لحظة واحدة ، ثم ذرني أحمل آلام الحزن لفقدك في غفلتي وفي يقظتي

— ٧٩ —

أنا كأنني نثار سحابة خريف تضطرب عبثاً في أرجاء السماء ؛ آه ، إن شمسي دائماً تتألق ! إن لمساتك لم تحولني إلى بخار فأكون شعاعاً منك يحصي عدد الشهور والسنين التي تنفصل عنك

وإذا كانت تلك إرادتك ، وهذه هي غايتك ، فاجذب إليك حطامي المنقض ، واصبغه بالألوان وزينه بالذهب ؛ ثم ارسله بين هوج الرياح ليبدو في فنون أخّاذة

وإذا كانت مشيئتك أن تنتهي من عملك والليل ساج ؛ فسأذوب وأتلاشى بين أضعاف الظلام ، أو في بسمة الصباح اللامع ... في الصفاء والنقاوة

— ٨٠ —

في أوقات الفراغ آسى أنا على أيامي الضائعة ؛ ولكنها — يا إلهي — لم تضع ، فأنت قد بسطت يديك على كل ساعة منها

إنك تستقر في أعماق كل شيء ، فأنت تنفث في الحبة فتصبح نبتة ، وتنفخ في الكم فيتفتح عن زهرة ، وتنضج الزهرة فتحور ثمرة

لقد كنت أستشعر الجهد والضنى فاستلقيت على فراشي وفي خيالي أن كل عمل في العالم قد وقف ؛ وعند الصباح انطلقت إلى حديقتي فألفيتها تموج بالزهر الغض

— ٨١ —

إن الزمان لا نهائي بين يديك ياسيدي ، وليس هنا من يستطيع أن يحصي عدد اللحظات

الليل والنهار يتعاقبان ، والدهر يتفتح ويذوي كأنه زهرة ؛ وأنت وحدك تعرف كيف تبقى ، والقرون يتلو بعضها بعضاً ، تدفع زهرة برّية صغيرة إلى الكمال

لم يبق من وقت نضيعه فلنتدافع نحو الفرصة السانحة ، فنحن فقراء يؤذينا الكسل

وهكذا تصرم الزمن وأنا أحبو منه كل شاكٍ يمتني ، فأقفر محرابك من القرابين

وعند الغروب انطلقت أشتد نحو بابك خيفة أن يغلق علي ، غير أني وجدت أنه ما يزال في الوقت بقية

كامل محمود حبيب

أبو إسحاق الصابي

للأستاذ عبد العظيم على قناوى

— ٣ —

لابد للكاتب الحريص أن يتحرى النواحى التاريخية التى تتصل بالحياة الأدبية عند ما يعرض حياة رجل كأبى إسحاق الصابى خبَّ فى السياسة ووضع ، وارتفع بأسبابها ووقع ؛ ليتبين هل كان بؤس ذلك الرجل طوال عمره أثر سرف فى خطته ، ونتيجة سفه فى مسلكه ؟ أم أن جيله الذى نشأ فيه هو رأس نكباته ، وأس وبلاته ؛ حتى صار البؤس على وجهه كتاباً مسطورا ، والشقاء فى حياته طريقاً مرسوما ؛ لذلك أرى وصف الحالة السياسية فى العصر الذى عاش فيه موجزا

ولد أبو إسحاق فى أوائل القرن الرابع الهجرى ، والخلافة مزعزعة الأركان ، واهية البنيان ، يتبارى فى تقويض دعائمها وتهوين رواسخها أمراء متعددون ، وقواد متحفزون ، شغلتهم نفوسهم عن دولتهم ، فهم يبغون لشخوصهم ملكا عضودا ، ولدولتهم نهوضاً وسعودا ؛ لا يبالون أن يبنوا ذلك على أنقاض منعة الإسلام ، أو على انتهاك حرمة السلام ؛ وكان المتألبون أجناساً شتى ؛ فللترك طوراً القدح المعلى والنصيب الأعلى ، وللديلم حيناً القوة والبطش ، والمنعة والبأس ، والأمة حيال أولئك وهؤلاء كأسراب القطا تتخاطفها البزاة الجارحة ، أو كقطعان الحملان تتناهبها الذئاب الضارية

وفى الثلث الثانى من هذا القرن استتب الأمر قليلا لآل بويه واطمأن إليهم الملك ، فاستولى معز الدولة بن بويه على بغداد بعد أن انتشر فيها الفساد ، وطغت عليها الفاقة ، واجتاحتها المخمصة ؛ حتى هجرها أهلها إلى المدائن والقرى يستمطرون الرحمة ، ويبحثون عن الطمأنينة والدعة ، وبعد مدة خلع معز الدولة الخليفةَ المستكفى بالله ؛ لاتهامه إياه بدسائس يحوكها ضده ، وتدبيرات ينسجها فى الخفاء له ، وولى بعده ابن عمه المطيع لله ، وكان هذا كرة صولجانها معز الدولة ، ورخلة سيفها آل بويه ؛ يأمرون فيأتمر ، ويشيرون فيصنع ، ويشاءون فينفذ ؛ أما أن يكون له من الأمر شىء ، فذلك مالا سبيل إليه . وظل ذلك شأن معز الدولة يدبر شئون الأمة متفرداً ، ويقضى فى سياستها متوحداً ؛ حتى أدركه المنون منتصف القرن الرابع . فتولى الملك بعده ابنه بختيار ، وتلقب بعز الدولة ، وقد أشرف على الخلافة أحد عشر عاماً ، وهو لاهٍ عن أمره وكيده ، وملك سلكه حتى سُلبه ؛ لها بالغوانى الكواعب والمغنيات الكواكب ، فبرز له منافس قوى أوتى نبلاً وبعد همة ونباهة ذكر وحسن أحدوثة هو عضد الدولة ، فدخل بغداد فاتحاً ، وقبض على محمد بن بَقية وزير عز الدولة وصلبه على رأس الجسر ، وهو المرثى بالقصيدة الخالدة لأبى الحسين الأنبارى وأولها:

علو فى الحياة وفى الممات لحق تلك إحدى المعجزات

فى هذا العصر أهلَّ أبو إسحاق ودرج ، وشب واكتهل ، وشاب وهرم ، فلا بدع أن يناله ما ناله ، ولكن البدع أن يخرج من هذا المترك لا عليه ولا له ؛ إذ معنى هذا أنه كان فى الأدباء من النكرات ، وفى رجال الدولة من الإمعات ، وإن حياته لتنبئ عن غير هذا ، فقد اعتقل فى عصر معز الدولة عند ما ناب عن الوزير المهلبى على ديوان الوزارة والرسائل لخروج الوزير إلى الشام مقاتلاً ، فقتل بعمان ، وقبض على عماله جميعاً وعلى رأسهم أبو إسحاق ومن قوله وهو معتقل :

يا أيها الرؤساء دعوة خادم أوفت رسائله على التعديد
أيجوز فى حكم المروءة عندكم حبسي وطول تهددى ووعيدى؟
قلدت ديوان الرسائل فانظروا أعدوت فى لفظى عن التسديد؟
أعلىَّ رفع حسام ما أنشأته فأقيم فيه أدلتى وشهودى

ولما فك اعتقاله خدم عضد الدولة وهو بفارس ، بالشعر والكتابة يفيض عليه المدح ويضفى الثناء حتى صار الصابى من جملة خاصته ، وموضع ثقته ومحبته ، ومحل رفده ورضيخته ؛ وحتى همَّ بالنزوح معه إلى فارس بعد حلف عقد بينه وبين عز الدولة الدولة بختيار خوف سطوته ، وخشية بطشه وفتكه ؛ لتوثق علاقته بعضد الدولة ، ولكنه — وهو من عرفنا رعاية لأهله ، وحدباً على ولده — خاف أن يأخذ عز الدولة البرىء بالمذنب ، والمحسن بالمسيء ، فينال أهله منه سوء لا يجد لرده دفعاً ، ويصيبهم منه شر لا يعرف له درءا ، فيكون كمن يفدى نفسه بولده ، ويستخلص

دمه بدماء ذوى قرابته ، وما عرفنا فيه خيانة للجار الجنب ، فكيف به يسلم بنيه وذويه ، ويخرج مع البازى عليه سواد ؟ عرف عضد الدولة ما يعتلج فى نفسه ، وما يضطرب به فكره ، فجعل أمنه فى سربه جزءاً من الحلف ، وسلامته فى ولده شرطاً من شروط العقد ، فنص فيه على حراسته فى نفسه وماله ، وترك تنبيه فى شيء من أحواله . وبعد مزايلة عضد الدولة بغداد استخفى خائفاً ، واستتر متوجساً شرا ؛ حتى توسل أحد أصدقائه إلى عز الدولة وإلى وزيره ابن بقية أن يهبا له أمناً ، ويبذلا له عونا ، فقبلا التوسل وتركاه طليقا ، وما لبثا أن قيداه سجيناً بإغراء ابن السراج[1] لهما به ، وفى هذا يقول ياقوت فى معجمه «وجرت له فى هذه النكبة خطوب أشفى فيها على ذهاب النفس ، ثم كفاه الله بأن فسد أمر ابن السراج مع ابن بقية بما عامله بالعلة التى عرضت له ، فقبض عليه ، ونقل القيد من رجل أبى إسحاق إلى رجله[2] » وفى محبسه هذا كتب إلى ابن بقية يستعطفه ويستميحه :

ألا يا نصير الدين والدولة الذى ردت إليها العز إذ فات رده
أيعجزك استخلاص عبدك بعدما تخلصت مولاك الذى أنت عبده ؟

وصفا له الجو ، وهدأت عواصف الشر ، فاستخدمه عز الدولة فأخلص ، واصطفاه فكان نعم المصطفى ، وكتب له كتباً كانت مثار حنق عضد الدولة ، ومدار إحنه ، ولشد ما غضب عندما أنشأ كتاباً عن الخليفة الطائع لله يشيد فيه بعز الدولة ، ومنه « وقد جدد أمير المؤمنين له (أى لعز الدولة) مع هذه المساعى السوابق ، والمعالى السوامق ، التى يلزم كل دان وقاص ، وعام وخاص ، أن يعرف له حق ما كرم به منها ، ويتزحزح له عن رتبة المماثلة فيها » فقد أحفظه هذا التعريض أعظم حفيظة ، واضطغن عليه أشد ضغينة ، فلما ملك بغداد سنة سبع وستين وثلثمائة هجرية أمره أن يؤلف كتاباً فى مناقبه ، وفى آثار الدولة الديلمية ، وذكر فتوحها ، فأطاع . وبينا هو فى تأليفه وتصنيفه ، وتسويده وتطريسه زاره فى داره عدو فى ثياب صديق ، وسأله عما يعمل ، فزعم عنه أنه قال : أباطيل أنمقها ، وأكاذيب ألفقها ، فحركت القالة المزعومة فى عضد الدولة كوامن غيظه ، وأثارت منه عوامل ضغنه ، فأمر بإلقائه تحت أرجل الفيلة ، ولولا أن استشفع فيه من أصدقائه نصر بن هرون ، ومطهر بن عبد الله ، وعبد العزيز بن يوسف ، لكان فى ذلك اليوم من الهالكين ؛ فقد أقبلوا على الأرض يقبلونها بين يدى ملكهم ضارعين مستشفعين راجين متوسلين ؛ حتى صدر أمره باستحيائه مع اعتقاله ، واستصفاء أمواله ، فبقى فى معتقله هذا ثلاث سنوات وسبعة أشهر وأياماً ، وإن جاء ذكرها فى شعره أربعاً على سبيل التجوز فى قصيدة يسترحم بها عضد الدولة ، وقد خرج لزيارة مشهد أمير المؤمنين سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وأولها :

توجهت نحو المشهد العلم الفرد على اليمن والتوفيق والطائر السعد
تزور أمير المؤمنين فيا له ويالك من مجد منيخ على مجد
فلم ير فوق الأرض مثلك زائراً ولا تحتها مثل المزور إلى اللحد

وفيها يقول :

أمولاى : مولاك الذى أنت ربه إليك على جور النوائب يستعدى
وهذى يدى مدت إليك بقصة أعيذك فيها من إباء ومن رد
أتانى شتاء ليس عندى دثاره سوى لوعة فى الصدر مشبوبة الوقد
فلو أن رد الجلد عاد إلى الحشا وفار الحشا الحران منى على الجلد
أزيحت لنفسى علتاها فأعرضت عن البث والشكوى إلى الشكر والحمد
وداويت داءىّ النقيض بن ذا بذا أعدل إفراطاً من الضد للضد

ومنها :

فلا تبعدنى عنك من أجل عثرة فإن جياد الخيل تعثر إذ تخدى
ولو كنت تنفى كل من جاء مخطئاً إذن لعممت الناس بالنفى والطرد
ومن زلّ يوماً زلة فاستقالها فذاك حقيق بالهداية والرشد
توالت سنى[1] أربع ومدامعى لها أربع كالسلك سل من العقد

---

(١) هو محمد بن المظفر بن السراج ، ترجم له البغدادى فى كتابه فى الجزء الثالث فما قال : إنه مات لتسع بقين من جمادى الأولى سنة عشر وأربعمائة ، عن أربع وسبعين سنه

(٢) الجزء الثانى ص ٣٦ « الطبعة الأخيرة »

(١) كذا باليتيمه وهو تحريف ولعلها سنون ، ودخل التفعيلة الثانية القبض ، وفى البيت الأخير جاءت رؤيا مقصوداً بها البصرية ، فجيئها حجة معاضدة لمن يقول إن الرؤيا تصدق على الحلمية والبصرية

أحوم إلى رؤياك كيما أنالها
حيام العطاش الناظرات إلى الورد

ويبدو لى أنه أفرج عنه عقب هذه القصيدة ، ولكنه ما سلم حتى ودّع ، وما هنئ حتى وومى ؛ إذ قبض عليه مرة أخرى عند ما فتح بغداد للمرة الثانية بعد أن استشفع لديه قبل وصوله إليها بأبى سعد بهرام بن أردشير ، وسأله أن يذكره لدى عضد الدولة ، ويقيم له عذره ، ويوضح له أمره ؛ فكان جواب عضد الدولة العفو والمغفرة فى كتاب طويل منه : « ومن كانت به حاجة إلى إقامة معذرة ، واستقالة من عثرة ، أو الاستظهار فى مثل هذه الأحوال بوثيقة ، فأنت مستغن عن ذلك بسابقتك فى الخدمة ومنزلتك من الثقة ، وموقعك لدينا من الخصوص والزلفة » . ومنه : « فاسكن إلى ذلك واعتمده ، ولك علينا — الوفاء به — عهد الله وميثاقه ، وقد حملنا أبا سعد — أعزه الله — فى هذا الباب ما يذكره لك . والله نستعين على النية فيه وهو حسبنا »

ودخل عضد الدولة بغداد وهو عنه راض ، وبرحها إلى إلى الموصل وهو إلى ولاء الصابى مطمئن ، ولكن الوشاة —وما أكثرهم — نبشوا الدفائن ، وأخرجوا كتباً من عز الدولة إلى أحد عماله بخط الصابى ؛ وفى بعضها قدح فى عضد الدولة ، ورفعوها إليه ، فكتب من الموصل بالقبض عليه ، ولعل حديثه هو عن نفسه أدق من حديثنا عنه ، فهو يقول :

« كنت[1] جالساً بحضرة أبى القاسم المطهر بن عبد الله وزير عضد الدولة فى يوم القبض عليّ إذ وردت النوبة ، ففضت بين يديه وبدأ منها بقراءة كتاب عضد الدولة ، فلما انتهى إلى فصل منه وجم وجوماً بان فى وجهه ، فقال لى أبو العلاء صاعد بن ثابت : أظن فى هذا الكتاب ما ضاق صدراً به ، وقمت من مجلسه لأنصرف ، فتبعنى بعض حجابه ، وعدل بى إلى بيت من داره ؛ ووكل بى ، وأرسل يقول لى : لعلك قد عرفت منى الانزعاج عند الوقوف على الكتاب الوارد من الحضرة اليوم ، وكان ذلك لما تضمن من القبض عليك ، وأخذ مائة ألف درهم منك ، وينبغى أن تكتب خطك بهذا المال ، ولا تراجع فيه ؛ فو الله لا تركت ممكناً فى معونتك وتخليصك إلا بذلته . وقد جعلت اعتقالك فى دار ضيافتى ، فطب نفساً بقولى ، وثق بما يتبعه من فعلى » كما قبض على ولديه أبى على المحسن ، وأبى سعيد سنان ؛ وقد وفى الوزير أبو القاسم بما وعد ، فسأل عضد الدولة إطلاقه واستخلافه لقيام أبى القاسم على رأس جند لقتال صاحب البطيحة ، فقال له :

أما العفو فقد شفعناك فيه ، وينبغى أن تعرفه ذلك وتقول له إننا قد غفرنا لك عن ذنب ، لم نعف عما دونه لأهلنا يعنى : عز الدولة والديلم ، ولأولاد بيتنا — يعنى : أبا الحسن محمد بن عمر وأبا أحمد الموسوى ، ولكنا وهبنا إساءتك لخدمتك وعلينا[1] المحافظةَ فيك على الحفيظة منك ، وأما استخلافك إياه بحضرتنا فكيف يجوز أن ننقله من السخط والنكبة إلى النظر فى الوزارة ولنا فى أمره تدبير ، وبالعاجل ، فتحمل إليه من عندك ثياباً ونفقة وتطلق ولديه ، وتقدم إليه عنا بعمل كتاب فى مفاخرنا . فحمل إليه المطهر ما أمر به الملك وأطلق ولديه ، ورسم له تأليف الكتاب وبقى الصابى فى محبسه يؤلف حتى أتم المؤلف ، فلم يفرج عنه لوقته بل قيل : إنه أخر الافراج عنه سنة ، فلما رفع إليه إحدى قصائده يطلب فيها الصفح عنه والافراج ، قرئت عليه ولديه بعض أصدقاء أبى اسحاق ومنهم أبو الريان حامد بن محمد وعبد الله بن سعدان فقبلا الأرض وقال أحدهما : إن من أعظم حقوقه علينا وذرائعه عندنا أن عرفناه فى خدمتك ، وخالطناه فى أيامك . قال : فاذا كان رأيكما فيه ، فأنفذا وأفرجا عنه ، وتقدما إليه بملازمة داره إلى أن يرسم له ما يليق بمثله ، فأفرج عنه قبل وفاة عضد الدولة بأيام ، وقيل بل بقى فى السجن حتى أفرج عنه ابن عضد الدولة أبو الحسين تاج الدولة

وإنى أرجو غير فاخر أن أكون قد وفقت فى سرد وقائع هذا الجزء من حياته ، وقربت بين الروايات المتضاربة عن اعتقالاته ، مستنداً فى ذلك الترتيب على التاريخ السياسى للدولة البويهية ، وفى المقال التالى نتحدث عن كتابته

عبد العظيم على قناوى

---

(١) كتاب معجم الأدباء . الجزء الثانى ص ٤٠ الطبعة الاخيرة

(١) ضبط شارح المعجم المحافظة بالضمة وأرى أنها مفتوحة لانها مفعول « لعلى » وهو فعل متعد بالى المضارع لا أنها مبتدأ مؤخر ، وسياق العبارة يؤيد هذا الرأي

علاقـــة الدين بين العرب والصـــين

بقلم بدر الدين الصيني

معتقدات الصين القديمة

كان للصينيين دين قبل وصول الديانات الأجنبية إليهم مبنى على الأوهام والخرافات ، كما كان الشأن فى كل أمة من الأمم فى الأزمان الغابرة ؛ واتخذوا الأجرام السماوية والظواهر الطبيعية معبودات لهم غير معتقدين بخالق جبار يخضع لتصرفه كل شيء من الموجودات والكائنات ، فكثرت فيهم الآلهة وتنوعت طرق عباداتهم (١)

فالحكماء الذين ظهروا فى أرض الصين بعد زمن الخرافات وطلوع فجر التاريخ الصحيح ، فى شخصيات « لوتس Laotze » و« كانفوشيوس Confucius » و « مونشيوس Moncius » و « مأتى تس Maitze » ، لم يأت واحد منهم بنظام دينى يسير عليه الصينيون كافة . إلا أنهم جميعاً يعتقدون بما وراء الطبيعة ، فمثلاً « الطريقة » عند «لوتس» هى شيء ليس بصورة ولا صوت يبقى دائماً ، لا يفنى أبداً ، ووجوده قبل كل كائن مصدر لجميع الموجودات وروح تحيا بهــا . فهذا التعريف لطريقة « لوتس » يوافق ما نعتقد بصفات الله . وأما «السماء» فى عقائد كانفوشيوس فهو صاحب السلطة الاخير الذى إذا أغاظه الإنسان بارتكاب الكبائر فلا سبيل له إلى النجاة ، فلذلك يقول : « أين الدعاء من إغاظة السماء ؟ »

لا فرق بين « سماء » كانفوشيوس و « سماء » مونشيوس لأن الثانى تلميذ الاول ، فهو يحذو حذوه فى التفكير والبحث الفلسفى ؛ وأما « مأتى تس » فدينه دين المحبة والمؤاخاة ، يحب الصلاح والسلام ويكره الفساد والقتال ؛ ومبادئ حبه تشابه مبادئ حب الدين المسيحى ، وأصول أخوته تماثل أصول أخوة الاسلام ؛ لكنه لم يضع نظاماً لإظهار هذا الحب وهذه الاخوة فالكف عن القتال والنهب والامتناع عن السرقة والحسد فى اعتقاده من دواعى التحاب ومقويات التآخى ، وغير ذلك

هذه الديانات كلها تخالف الإسلام فى مسئلة الحشر والنشر والحياة بعد الموت من جهة الاعتقاد ، وفى مظاهر العبادات من حيث العمل — لأن أهلها لا يعتقدون بالحشر والنشر ، ولم يأتوا بنظام خاص للعبادات — لعلّ هــذا هو السر الذى يُبقى أهل الصين فى معتقداتهم القديمة مع أن أغلبهم دانوا بالديانة البوذية التى أصلها من الهند ، وهذا التدين لم يحدث فى اعتقاداتهم شيئاً من التغيير ، مع أن الديانة البوذية قد أثرت فى أدبيات الصين وفلسفتها تأثيراً بيناً . فرجل الدين من أهل الصين يدين بمجموع عقائد ومبادئ هذه الديانات المذكورة ، فلذلك تروتهم يتعبدون على مبادئ كانفوشيوس حيناً وعلى « طريقة لوتس » حيناً آخر ، مع أنهم يتعصبون للبوذية إن دانوا بها ، أو للمسيحين إن كانوا مسيحيين . هكذا شأنهم فى أمر الدين حتى الآن

دخول الديانات الأجنبية الى الصين

معتقدات الصين القديمة التى ذكرتها آنفاً ، بطبيعتها ومبادئها لا تنافى الديانات الأجنبية التى كانت سائدة فى آسيا أوسطها وأدناها ، فسهل على البوذية أن تتسرب إلى الصين عن طريق تركستان فى القرن الثانى للميلاد ، وامتزجت بمعتقدات الصين ، فصارت الآن ديناً شبه دين الدولة فى الشرق الأقصى ؛ مع أن مذهب كانفوشيوس أو « طريقة لوتس » أجدر بهذا الاحترام ولها نفوذ فى كل ناحية من نواحى حياة الشعب الصينى يظل باقياً حتى يغلبه أثر الإسلام إن قدر الله للإسلام نهضــة جديدة فى تلك الديار فى المستقبل

من الديانات الأجنبية التى تسربت إلى الصين قبل الإسلام المانوية والمجوسية والنسطورية ؛ فدخول المانوية الصين كان فى القرن السابع للميلاد جاء إليها من تركستان لأن أغلب أهلها قد اعتنقوا هذا الدين قبل ظهور الإسلام ، فانتشر رويداً رويداً إلى شمال الصين وغربها حتى أسس المعابد لمعتنقيه فى الشطر الأول من القرن الثامن للميلاد فى بعض المدن الشهيرة ، ولهم هياكل كثيرة فى ولايات « هانان Hanan » و « شانسى Shansi » وكثرة أصحاب هذا الدين يمكن أن نعرفها من الواقعة التى وقعت

(١) إلهيات الصين ص ١٢

فى عهد « ووشونك » (٨٤١ — ٨٤٦ م) . وكان هذا الامبراطور متشيعاً « بطريقة لوتس » ومتعصباً لها ، فاضطهد أهل الديانات الأخرى وهدم كثيراً من معابد المانوية والمجوسية والنسطورية . فقتل فى عاصمة الصين وحدها ٧٢ نسمة من راهبات المانوية ، ففنيت هذه الديانة من الصين بعدئذ (١)

أما المجوسية ، كما أشار إليها سليمان السيرافى والمسعودى وغيرهم من كتاب العرب ، فدخلت الصين قبل الإسلام على الأقل بقرن ، ولكنها لم تنتشر إلا فى دائرة محدودة . فلما فتح العرب إيران وقضوا على دولة كسرى فرّ يزدجرد إلى الشرق ولجأ إلى عاصمة الصين ، فأنشأ فيها معبداً للمجوسيين ، وكان معه جماعة من علماء المجوسية فبثوا دعايتهم فى شمال الصين ، لكن هذه الديانة غير مقبولة عند الصينيين . فالذين دخلوا فيها قليلون جداً . وقد محيت آثارها فى سنة ٨٤٦ م كما أسلفنا

وأما الديانة النسطورية فوصلت إلى الصين فى سنة ٦٣٥ م ، وذلك بناء على ماثبت فى كتابة تاريخية (٢) وجدت بمدينة تشانغ أن Chang-An وأول من جاء إلى الصين للدعاية إلى النسطورية كان رجلاً يدعى أولوبن Olopen (٣) ويظهر من تاريخ الصين أنه استوطن تشانغ ، وأنه بنى معبداً للنسطوريين يسكن فيه واحد وعشرون راهباً ؛ وكان أولوبن رئيسهم ؛ ثم انتشرت هذه الديانة فى بعض العواصم وأنشأوا معابد فيها ، فنقشوا أعمالهم فى الألواح الحجرية ونصبوها فى المعابد تذكيراً وتخليداً ، فالعبارات التى نقشت فى هذه الألواح مدونة الآن فى تاريخ الصين العام (٤)

وبعض الكتب العربية يذكر أيضاً ذهاب النسطوريين إلى الصين . مثل ابن النديم ، فانه روى فى الفهرست أن الجاثليق قد بعث ستة من علماء النساطرة إلى الصين للارشاد والدعاية فمات منهم خمسة ورجع سادس وهو من أهل نجران إلى الروم بعد الاقامة بالصين نحو ست سنين فى سنة ٣٧٧ هـ (٥)

(١) Yung Tung Chiang ; out line of Av Chine Civilization; P. 269.

(٢) أريد بكتابة تاريخية ما تسمى Inscription بالانكليزية

(٣) Hirth : China and the Roman orient ; P. 286.

(٤) Out line of the Chinese Civilization; P. 267

(٥) ابن النديم ص ٤٩١

وكان لهذه الديانة قدم ثابتة فى نفوس الصينيين ، ولعلها تؤثر فى حياتهم إلى حد ما إذا طال أمدها فى الصين ، لكن مشيئة الله لم ترد انتشار هذه الديانة فى الشرق الأقصى فطرد مبشروها ، وهدمت معابدها فى أواخر القرن التاسع للميلاد ، وحكاية الراهب النجرانى أيضاً تشير إلى ذلك

الأغلاط التاريخية فيما يتعلق بدخول الاسلام الى الصين

لقد أطلت فى ذكر هذه الديانات الأجنبية مع أن محور بحثى فى هذا الموضوع هو دخول الاسلام ، وإنى مضطر إلى أن أفعل هذا لأن الأغلاط التاريخية التى تتعلق بدخول الاسلام لا يمكن أن تستدرك إلا بمعرفة تواريخ هذه الديانات ودخولها إلى الصين . لقد قيل ان الاسلام قد وصل إلى الصين فى عهد « كاى وانغ — Kai - Wang » من « أسرة هوى — Hui Dynasty » ومعنى ذلك أن دخول الاسلام الصين قد وقع بين سنتى ٥٨٩ و ٦٠٥ م ، وهذا مستحيل لأن محمداً رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لم يبعث بالرسالة إلى العالم كافة إلا سنة ٦١٠ م

ومن رأيى أن القائل بهذا القول قد أخطأ فى هذه النقطة لحسب المجوسية التى دخلت الصين فى أواخر القرن السادس للميلاد دين الاسلام الذى دعا إليه صاحب الرسالة بعد نبوته ، مغالطاً فى دليله إذ قال إنها ديانة جاءت من « الغرب » بالنين (١) ففهم من « الغرب » « العرب » ووقع فى خطأ فاضح دون أن يشعر أن الاسلام لم يكن له وجود فى جزيرة العرب قبل سنة ٦١٠ من تاريخ الميلاد . فظهر من هذا الاستقراء أن الدين الذى وصل إلى الصين فى عهد « كاى وانغ » كان فى الحقيقة المجوسية لا الاسلام . وعندنا شهادة نقلية فى الكتب الصينية غير تلك الدلائل العقلية التى أشرت إليها آنفاً ، ونعرف أن بعض المجوسيين قد وصلوا إلى « تشانغ آن » فى أول عهد « كاى وانغ » وأنشأوا المعابد وكانوا يغنون فى صلواتهم فيها . ومن أناشيدهم الدينية نوع يقال له « موفوش » (٢) يوجد ذكره فى « ديوان أغانى الصين » وفسر صاحب الديوان هذه الكلمة بأنها نوع من الأغانى الدينية

(١) والمراد من « الغرب » فى الكتب الصينية القديمة ما يقع فى غرب الصين إلى البحر الأبيض واستنبول

(٢) The Chinese (Dictionany) P. 223. (G. Section)

للمجوسيين الذين وردوا إلى الصين فى عهد « كانى وانغ » وهذا دليل قاطع يرد على من يدعى دخول الاسلام فى هذا العهد

أما اتصال الاسلام بالصين فكان عن طريقين : طريق البر وطريق البحر . كان قتيبة ابن مسلم الباهلى الذى فتح كاشغر فى سنة ٩٦ هـ ، هو الأول الذى بعث وفداً من العرب بطريق البر إلى امبراطور الصين فى أواخر تلك السنة فعرضوا عليه أحد الأمور الثلاثة : الاسلام والجزية والمحاربة . ولابن الأثير فى هذا الوفد أقوال طريفة توجد فى تاريخ الكامل ، وللقارئ أن يرجع إليه فى هذا الصدد ، وأما وصول الاسلام إلى الصين بحراً ففيه اختلاف بين المؤرخين فى سنة الوصول وفيمن هو أول من جاء بالاسلام إلى أقرب مرافىء الصين « كانتون »

(لها بقية)

بدر الدين الصينى
عضو من البعثات الصينية
بالأزهر الشريف

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه
ترجمة الأستاذ فليكس فارس

الغبطة القاسرة

وسار زارا يقطع أبعاد البحر تساوره مثل هذه الهموم ، وتدور به مثل هذه الأسرار ، حتى إذا تخطى مجال أربعة أيام عن الجزر السعيدة وما ترك عليها من صحبه ، اشتدت عزيمته فتغلب على آلامه ، وثبّت قدميه فى موقفه متجهاً إلى مقدراته مناجياً سريرته وقد عاد إليها مرحها وسرورها قائلاً :

لقد فزعت إلى عزلتى لأننى تقت إليها ، فأنا الآن منفرد أمام صفاء السماء ومدى البحار ، وقد خطا النهار إلى عصره وما التقيت بأصحابى للمرة الأولى إلا فى وقت العصر ، وفى مثل هـذا اليوم اجتمعت بهم للمرة الثانية . والعصر هو الساعة التى يهدأ فيها اضطراب الأنوار جميعها لأن السعادة الذاهبة بدداً منشورة على مسالكها بين السماء والأرض تتجه إلى الاستقرار فى روح الضياء . وها إن السعادة تحوّل اضطراب النور إلى سكون

فيالعصر حياتى ! إن سعادتى هى أيضاً قد انحدرت يوماً إلى الى الوادى تطلب مستقراً فلقيت هذه الأرواح النيّرة تفتح لها الملجأ الأمين

يا لعصر حياتى ! لكم تخليت عن أشياء فى الحياة توصلاً إلى مغارس أفكارى الحيـة وإلى أنوار الصباح تدور فى ذراتها أسمى أمانىّ وآمالى

لقد طلب المبدع يوماً رفاقاً له وفتش عن أبناء آماله فأدرك أنه لن يجدهم إذا هو لم يخلقهم خلقاً

لقد أتممت نصف مهمتى باتجاهى نحو أبنائى وبعودتى إليهم ، وقد وجب على زارا أن يبلغ نفسه الكمال من أجل هؤلاء الأبناء . وما يحب الانسان من صميم قلبه إلا ابنه ونتيجة جهوده ، وحيث يتجلى الحب الأشد فهنالك تكمن القوة المولّدة ؛ ذلك ما أدركته بتفكيرى

إن أزهار أبنائى لا تزال تتفتق فى الربيع والريح تهب على صفوفهم فتهزها ؛ فأبنائى أشجار حديقتى ونبت خير أراضى

إن هذه الأشجار متراصّة فى منابتها على الجزر السعيدة ، ولسوف أقتلها واحدة فواحدة لأغرسها متفرقة فتتعلم احتمال العزلة وتنشأ فيها الأنفة والحزم لينتصب كل منها تجاه البحر وقد تعدّب جزعها وتعقدت أغصانها كنائرحية للبقاء القاهر

على كل شجرة أن تشخص فى مهب العواصف المترامية إلى البحر حيث يتدافع الغمر إلى قاعدة الجبل فلا تغفل ليلاً ونهاراً عن تفحص سرائرها . عليها أن تتحمل التجارب ليعلم أنها من سلالتى وأنها تحدرت من أصلى تعززها الإرادة المجالدة فتبدو صامتة حتى عند ما تتكلم ، وإذا ما استسلمت تبدو معطية وهى آخذة . وهكذا يتحول من يمشى على أثر زارا بأضرابه وبابداعه إلى شخصية تحفر شريعتى على ألواحى فيكتمل بذلك كل شىء

وهأنذا من أجل هذه الشخصية وأمثالها أسعى إلى تكوين شخصيتى فأمتنع عن ورود السعادة مقتحماً كل شقاء فى آخر تجربة أتحملها لأدرك سريرتى

لقد آن الأوان لرحيلى وقـد نبهنى إلى وجوب الرحيل خيال السافر وأطول الأزمان وأعمق الساعات صمتاً إذ نفخ

الريح في فتحة القفل فتراجعت درفة الباب قائلة : هيا

ولكنني كنت مقيداً بحبي لأبنائي يأسرني تشوق إلى هذا الحب لأصبح فريسة لهؤلاء الأبناء فأضحي من أجلهم نفسي : وما الشوق عندي إلا صورة ظاهرة لحقيقة فنائي . إن أبنائي لي وفي هـذا التملك يجب أن يضمحل كل شوق مستحيلاً إلى عقيدة مكينة

وكان رأسي يلتهب بشمس محبتي فاتحرق بحرارة دمي فرأيت أشباح الشكوك تدور بي من كل جهة فتمنيت أن يلفحني قرّ الشتاء حتى تصطك أسناني من رعشة الصقيع ، وما عتم أن اكتسح نفسي ضباب الجليد ، فشق الماضي لحوده وبعثت منه الآلام التي دفنت وهي حية فيها ، وما تناولها الفناء لأنها كانت نائمة على أكفانها

وكان كل شيء يشير إليّ بأن قد حان زمن الرحيل ولكنني كنت لا أنتبه إلى هـذه الدعوة حتى تحركت أعماقي ولسعتني ثائرات أفكاري . وياليت لي القوة للتغلب على ارتماشي عنـدما أشعر بقوة التفكير في أغواري تحاول أن تخترق لها منفذاً ، فإنني لا أزال أحس باختلاج قلبي عندما أتنصت لدبيب أفكاري وهي تحاول الانجلاء لي . إن في صمتك نفسه أيتها الفكرة ما يشد على عنقي وأنت أشـد صمتاً من أغواري . ولكم حاولت أن أستخرجك من الأعماق أيتها الفكرة فخانني العزم واكتفيت بإضماري إياك في ذاتي . إنني لم أتصل بعد إلى جرأة الأسد وإلى منتهى إقدامه

إنك لجدّ ثقيلة في أغواري أيتها الفكرة ولسوف أجد يوماً قوة الأسد وأتخذ لصوتي زئيره فأرفعك من النور إلى المنبسط ، حتى إذا ما تغلبت بذلك على نفسي تدرجت إلى انتصار أعظم أختتم به أعمالي . وإلى أن أبلغ هذا الظفر سأبقى تائهاً على بحار لا أعرف لها ساحلاً تداعبني خطرات الأحداث فأتلفت إلى ما ورائي وإلى ما أمامي ولا أعلم أين المنتهى

ألم تحن بعد ساعة جهادي الأخير أم هي ماثلة أمامي الآن ؟ والحق أن البحر والحياة يحيطان بي بجمالها الفتان ويلقان أبصارها عليّ

فيالعصر حياتي ، يا للسعادة تتقدم ساعة المساء ، يا للمرسى في وسط العباب ، يا للسكون في قلب الارتياب ، إنني أحاذركنّ ولا أثق بكنّ جمعاً

أما والحق إنني أخشى جمالكن الغدّار كما يخشى العاشق ابتسامة تجاوزت حد التلطف في افترارها . إنني أرفع عني ساعة السعادة كالغيور يصد عن محبوبته ولما يزل العطف يتجلى في قسوته وجفائه

بُعداً لك أيتها الساعة السعيدة ! فقد اجتاحتني بحلولك غبطة قاسرة وأنا أتوقع أعمق الأحزان . لقد جئتني في غير الأوان

بُعداً لك أيتها الساعة السعيدة ! اذهبي واطلبي لك ملجأ هنالك في مقر أبنائي ، سارعي إليهم وباركيهم قبل حلول المساء وأنيليهم سعادتي

لقد اقترب الغسق وجنحت الشمس إلى الغروب فتوارت عني سعادتي

هكذا تكلم زارا ...

وبات يتوقع تزول شقائه به طوال ليله ، غير أنه انتظر عبثاً إذ بقي الليل منيراً ساكناً واستمرت السعادة تخطو مع الساعات مقتربة إليه . وما لاح الفجر حتى بدا زارا يتضاحك قائلاً :

إن السعادة تتأثرني لأنني لا أتأثر النساء ، وهل السعادة إلا امرأة ؟

قبل بزوغ الشمس

أيتها السماء الرافعة قبابها فوق رأسي نقية صافية ، أيتهـا السماء السحيقة وقد غادرت في أبعادك الأنوار ، إنني أشخص إليك فتمتلكني رعشة الأشواق الإلهية

أنا لا أسبر أغواري إلا إذا سموت إلى عليائك ، ولا أشعر بطهارتي إلا حين يجللني صفاؤك

إنك تحجبين نجومك كما يتلفع الإله بسنائه . أنت صامتة وبصمتك تذيعين لي حكمتك

لقد تجليت لي اليوم في سكونك على زبد الآفاق فأعلنت لروحي المزبدة ما فيك من حب وعفاف . جئت إلي جميلة مقنعة بجمالك تخاطبينني بلا كلام وتعلنين حكمتك وما كنت أعلم ما في روحك من عفاف . أتيت إلى قبل بزوغ الشمس أنا المنفرد في عزلتي

أنا وأنت صديقان منذ الأزل فأحزاننا واحدة كارتياعنا ، وعمق أغوارنا وشمسنا واحدة أيضاً . وما نتناجى إلا لوفرة ما نعلم ثم يسودنا الصمت فنتبادل ما أعرف وما تعرفين بلغة البسمات . أفما بعثت أنوارك من مكمن أنواري أفليست فكرتك أختاً لفكرتي ؟

لقد تعلمنا كل شيء سوية وتدربنا سوية على الاعتلاء فوق ذاتنا متجهين إلى صميمها مبتسمين بافترار لاتعكره الغيوم . وبلفتات صافية نفرقها في سحيق الابعاد في حين تتدافع كالأمطار تحتنا النزعات المكبوتة وأهداف الأخطاء

إلى مَ كانت تتوق نفسي عند ما كنت أذهب في الليل شارداً على مسالك الضلال؟ وماذا كنت أطلب في تسلقي الجبال نحو قممها؟ أفما كنت أنت مقصدي أيتها السماء . وهل كانت أسفاري جميعها إلا ذهاباً مع حافز التدرب؟ وهل كان لإرادتي من هدف غير التحليق في الأجواء؟ وهل أبغضت شيئاً بغضي الغمام وكل نقاب يلفع الضياء؟ لقد كرهت بغضي نفسه لأنه يعكر صفاءك أيتها السماء

إنني أنفر من هذه الغيوم تمر كأنها قطط برية تزحف زحفاً لأنها تختلس مني ومنك أيتها السماء الحقيقة الإيجابية الثابتة في كل شيء؛ فأنا وأنت ننفر من هذه الدخيلات المكرات من هذه الغيوم الكاسحات ، فما هي إلا كائنات مختلطة في نوعها يسودها التردد فلا تعرف أن تلعن بإخلاص ولا أن تبارك بإخلاص . وخير لي أن ألجأ إلى مغارة أو أسقط في هاوية من أن أقف أمامك ياسماء الضياء وقد عكرت صفاءك الغيوم الكاسحات . ولكم وددت لو أنني أسمر أردانها على آفاقك بسهام البروق الذهبية ثم أنزل عليها الرعود تهوي قاصفة على مراجل أحشائها . إنني أود قرعها بعصا الغيظ لأنها تحجب عني حقائقك أيتها السماء الممتدة بأغوار أنوارها فوق رأسي كما تحجب حقيقتي عنك

لخير لي أن أسمع هزيم الرعود وولولة العواصف من أن أنصت إلى مواء هذه الهررة الزحافة المترددة . ففي المجتمع أمثال لهذه الغيوم يسيرون مترددين بخطوات الذئاب وقد وقفت أشد بغضي عليهم

« على من لا يعرف أن يمنح البركة أن يتعلم إنزال اللعنات »

ذلك ما ألهمتنيه السماء الصافية مبدأ ينير سمائي كالكواكب في أشد الليالي تماماً

ما دمت فوق أيتها السماء الصافية المتألقة بالأنوار فإنني لا أنقطع عن منح البركة وإيراد بياني إيجاباً وتأكيداً لأنير بعقيدتي جميع الأغوار المظلمة

لقد جاهدت طويلاً حتى أصبحت مباركاً ومؤكداً . وما ناضلت إلا لأحرر ذراعيّ فأبسطهما للبركة؛ وتقوم بركتي على الاعتلاء فوق كل شيء كما تعتلي السماء والسقوف المكورة وقباب الأجراس والنبطة الدائمة . فطوبى لمن يبارك هكذا . لأن كل الأشياء قد تعمدت من ينبوع الأبدية وماوراء الخير والشر؛ وما الخير والشر إلا خيالات عابرة وأحزان بليلة وغيوم متراكضة إلى الفناء

والحق أن من البركة لا من اللعنة أن نسلم بأن فوق كل شيء تمتد سماء الصدفة وسماء البراءة وسماء الحيرة وسماء الاضطراب

إن كلمة الصدفة لأقدم ما في العالم من نسب للأشياء؛ وقد أرجعتُ كل الأشياء إلى هذا النسب النبيل فأنقذتها من عبودية القصد والهدف . وهكذا رفعت الحرية والنبطة السماوية عالياً ونصبتها كالقباب فوق جميع الأشياء إذ علمتُ أن ليس من إرادة أبدية تعلو بها لتبسط مقاصدها فوقها

لقد وضعت حداً لهذه الإرادة بل لهذا الجنون وهذا الاضطراب عندما علمت أن الوقوف عند الحقيقة كان مستحيلاً وسيبقى مستحيلاً . فما هناك إلا قليل من التعقل وذرات من الحكمة تلقفها الكواكب لخميرة امتزجت بالأشياء جميعها ولولا الجنون لما امتزجت بها

ليس للإنسان أن يعطي من الحكمة إلا قليلاً . غير أنني وجدت في كل مكان عقيدة لها سعادتها وهي تفضيل الرقص على أرجل الصدفة العمياء

فيا أيتها السماء الممتدة فوق رأسي ، أيتها السماء الصافية المتعالية ، لقد أصبح كل صفاء فيك قائماً على اعتقادي بأن ليس في الكون عنكبة خالدة ، وليس فيه من الحكمة ما تنسجه العناكب . فلتكن مجالاتك أيتها السماء مسرحاً لخطرات الصدف الإلهية ، أو فلتكن خواناً يدحرج عليه الآلهة نردهم ، فعلام يعلو أديم وجهك الاحمرار؟ أترى جاء بياني مبهماً أم وردت بركتي لك لعنة عليك؟ أم أخجلك أن أنفرد بك فأردت أن أتوارى وأكف عن الكلام لأن الفجر قد لاح على الآفاق؟

إن في العالم من الأغوار ما لا يدركه النهار ، ومن الأشياء ما يجب كتمانها أمامه ، وقد باغتنا النهار ، فلنفترق

أيتها السماء الممتدة فوق رأسي بطهرها واضطرامها . أيتها النبطة المتجلية قبل بزوغ الشمس ، لقد باغتنا النهار فلنفترق

هكذا تكلم زارا ... ... (يتبع)

عروس المـــاء

للأستاذ ابراهيم العريض

لذتُ خلف الغصون في عزلةٍ لا أملّهـــا
وحـــوالىَّ خضرة بَلَّهـا ما يبلهـــا
من نُهير زها على جانبيـــه محلهـا
فإذا راقت السما ء بدا فيهـا ظلهـا
وزهور يلوح كالـــقُرط فى الأذن طَلُّها
جادها المـاء قبـلةً ومضى يســـتقلها
وانبرى البلبـل الوديـــع لها يســـتغلها
فكأن الحياة ثمَّـــتَ للحب ... كلهـا

* * *

أنا فى نشـــوة أحدِّ ث نفسى بمـا أراه
وأرى ملء ناظر ىّ حياة — هي الحياه
تحت ظل يكاد يشـــتملُ الزهر فى مداه
وسكونٍ يمـدُّه بلبـلٌ بالذى شـداه
وكأنَّ الوجودَ يبـــسم حولى بمـا حواه
وإذا بى أحسُّ خلـــفى حراكاً على المياه
فتلفتُّ مســـتريـــباً إلى النهر ... من أتاه
آه ... ماذاشعرتُ فى الـ بِأْرتحت الضلوع ... آه

* * *

وتواريتُ فى الصخو ر وجانبتُ حـدَّها
وسددتُ الصدوع حو لى ما اسطعتُ سدها
حذراً أن تمّ بى قبلَ أن أستجِدها
نظرةٌ كالوميضِ تبـــتدرُ العينُ ردها
لاتسلنى بمن رأيـــتُ فأضمرتُ ودها
إذ تمثَّلْتْ كالشـعا عِ على الموج قـدها
يتبـــــادى منعَّماً فترى المـاء ضـدها
كلّما دافعتـــهُ جلّـــلَ بالشعرِ خـدها

* * *

فتمنَّيتُ لو دنت لى قريباً كما هيـه
فأرى شعرَها يبلّـــلهـا وهى عاريه
وأرى طرفَهـا تصّـــدُّ به صـدَّ عافيـه
وأرى فى تورّدِ الـــخدِّ أشياء ثانيـه
وأرى حُقَّتين وسْطَـــبهما بعضُ غاليـــه
تستمرّانِ فى النهو ضِ وإن تَحْنُ جاثيه
وأرى المـاء قد كسا ها على المتن حاشـيه
فغدت من مهابةِ الـــحسنِ تبدو ككاسيه

* * *

وانثنت نحـو ناتىء فانثنى الموجُ صفَّها
ترتمى فوقَ صـدرِه بيـدٍ ... ما أخفهـا
فاستوت عنده بحيـــثُ ترى العينُ نصفَها
فأمرّت على السـوا لفِ بالرفقِ كفها
تنفضُ القطرَ عن غزيـــرٍ من الشـعرِ لفهـا
ثم قامت فطوّقَ الـــماء كالرَّيْطِ خلفها
غـير أنّى غضضتُ طر فَ عن أن يشِفها
هى حوريةٌ من الـ إنسِ ... والمـاء زفها

* * *

وتخيّـــلتُ أننى قائمٌ فى جِـــوارها
حينَ تنسـابُ بالحريـــرِ — وإن لم يُوارها
حولَ ساقَين عاطِلَيـــن — يد(١) فى سوارها
ثم تخفـــو لترتدى مانضت من وقارها
فإذا عادلت بـــه سرّةً فى مـــدارها
أرسلت طُلّـةَ القميـــصِ على ضوء نارها
وإذا ما مشت تموَّ جَ ما فى صـدارها
فتثَّنى عليهمـــا فضلةً من خمارها

* * *

واكتست... ثمأبصرتْ بى عنـدَ انحـدارها
فاستفزّت ... كأنها صُـورةٌ فى إطارها

« البحرين » ابراهيم العريض

(١) فاعل « تنساب » فى البيت المتقدم

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٣٣٥ — سبحان الله !

في (بغية الوعاة) : الشيخ ضياء الدين القرى العفيفى العلامة التفنن[١] كان إماماً عالماً بالتفسير والرواية والمعاني والبيان والفقه، وكانت لحيته طويلة بحيث تصل إلى قدميه، ولا ينام إلا وهى فى كيس، وإذا ركب تتفرق فرقتين . وكان عوام مصر إذا رأوه يقولون : سبحان الله ! فكان يقول : عوام مصر مؤمنون حقاً لأنهم يستدلون بالصنعة على الصانع[٢] ...

٣٣٦ — ألم تسمع بفتكة جساس ؟

أبو بكر بن جزى فى طبيب يهودى :

وربَّ يهوديّ أتى متطبباً ليأخذ ثارات اليهود من الناس
إذا جسّ نبضَ المرء أودى بنفسه سريعاً، ألم تسمعْ بفتكة جسّاس؟!

٣٣٧ — كنت أكون إذن أحمقين

فى (ألف با) لأبى الحجاج البلوي : دخل جحا[٣] ذات يوم دار الرحا فجعل يأخذ من قمح الناس ويجعله فى قفته فقيل له :

(١) أنكر أستاذ كون (التفنن) في العربية إذ لم يجدها فى (القاموس) واللفظة فى اللغة وفى كلامهم . وأورد (الأساس) الفعل و (التاج) المصدر و (اللسان) الاسم والمصدر

(٢) السيوطى : وقع فى كلام الشيخ ضياء الدين اطلاق (الصانع) على الله وهو جار فى ألسنة المتكلمين ، وانتقد عليهم بأنه لم يرد اطلاقه على الله وأسماؤه توقيفية . وأجاب التقى السبكى بأنه قرىء شاذاً : (صنعه الله) بصيغة الماضى فمن اكتفى فى اطلاق الأسماء بورود الفعل اكتفى بمثل ذلك ، وأجاب غيره بأنه مأخوذ من قوله (صنع الله) ويتوقف أيضاً على القول بالاكتفاء بورود المصدر . وإنى لأعجب من قول القائل إنه لم يرد ، وهو في حديث صحيح : (إن الله صانع كل شىء وصنعته) أخرجه الحاكم

(٣) جحا معدول عن جاح لا ينصرف ، وحجا خطأ ، وثاقف (لاعب بالسيف) ورمي كما قال الميدانى ، وهناك جحا التابعى ، وجحا صاحب التفسير واسمه الخواجة ناصر الدين (توفى سنة ٣٨٠) كما فى (نزهة الجليس) وجحا التركي هو العربي ، ولأبى اليمن الغفارى مؤلف فى نوادر جحا يشتمل على ألف ورقة

وفى (أساس البلاغة) : قيل لجحا : على من تخالك ؟ قال : على أمى وأخياتي. يضرب فيمن قوته على الضعيف

لأى شىء تصنع هذا ؟ فقال : لأنى أحمق . فقيل له : فلمَ لا تجعل شيئاً من قمحك فى قفاف الناس ؟ فقال : كنت أكون إذن أحمقين ...

٣٣٨ — أقمته مقام هزؤ

فى (سرح العيون) لابن نباتة المصرى : يروى أن المأمون كان قد انحرف عن سهل[١] بن هرون إلى أن دخل عليه يوماً فقال: يا أمير المؤمنين ، إنك ظلمتني وظلمت فلاناً الكاتب . فقال : ويلك وكيف ؟! قال : رفعته فوق قدره ، ووضعتني دون قدرى ، إلا أنك فى ذلك أشد ظلما . قال : كيف ؟ قال : لأنك أقمته مقام هزؤ ، وأقمتني مقام رحمة . فضحك المأمون ، وقال : قاتلك الله ما أهجاك ! ورضى عنه

٣٣٩ — ولكن سليقى أقول فاعرب

فى (تاريخ اليمن) لنجم الدين عمارة اليمنى : جبلا عكاد[٢] فوق مدينة الزرايب وأهلها باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم ، لم تتغير لغتهم بحكم أنهم لم يختلطوا قط بأحد من أهل الحاضرة فى مناكحهم ولا مساكنهم . وهم أهل قرار لا يظعنون عنه . ولقد أذكر أنى دخلت زبيد فى سنة (٥٢٠) أطلب الفقه دون العشرين ، فكان الفقهاء فى جميع المدارس يتعجبون من كونى لا ألحن فى شىء من الكلام ، فأقسم الفقيه نصر الله بن سالم الحضرمي بالله لقد قرأ هذا الصبى فى النحو قراءة كثيرة . فلما طالت المدة والخلطة بيني وبينه صرت إذا لقيته يقول : مرحباً بمن حنثت فى يمينى لأجله . ولما زارنى والدي وسبعة من إخوانى

(١) البيان والتبيين : من الخطباء والشعراء الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار ، والكتب الكبار المجودة (لا المجلدة كما فى طبعة هذا الكتاب) والسير الحسان المولدة والأخبار المدونة — سهل بن هرون الكاتب صاحب كتاب (ثعلة وعفرة) فى معارضة كتاب (كليلة ودمنة) وكتاب (الاخوان) وكتاب (المسائل) وغير ذلك

(قلت) : أخبرنى الفقيه (القانونى) الأستاذ جريس سعدا أن عنده نسخة مخطوطة من كتاب (ثعلة وعفرة) وقد توفى هذا الفاضل منذ سنين فهل لحقته تلك النسخة اليتيمة ؟

(٢) فى (القاموس المحيط) : عكاد كسحاب جبل قرب زبيد أهلها باقية على اللغة الفصيحة ، وفي (التاج) : عكاد كسحاب جبل باليمن قرب مدينة زبيد حرسها الله وسائر بلاد الاسلام ، أهلها باقية على اللغة الفصيحة الى الآن ، ولا يقيم الغريب عندهم أكثر من ثلاث ليال خوفاً على لسانهم

فى زبيد أحضرت الفقهاء فتحدثوا معهم فلا والله ما لحن أحد منهم إلا لحنة واحدة نقموها عليه

٣٤٠ — ما يقول هذا ؟

فى (خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر) للمحبي : مر بعض الظرفاء بغلام جميل فعثرت فرس فى طين أصاب وجه الغلام منه نزر ، فقال الظريف : « يا ليتنى كنتُ ترابا ! »

فقال بعض المارّين للغلام : ما يقول هذا ؟

فقال : « ويقول الكافر : يا ليتنى كنت ترابا » ...

٣٤١ — يعشق مطلق الجمال

فى (شذرات الذهب ، ونفح الطيب) : كان ابن الفارض[١] عشاقاً يعشق مطلق الجمال حتى إنه عشق بعض الجمال ، وولع به فكان يستأجره من صاحبه ليتأنس به[٢] ، فقيل له : لو اشتريته فقال : المحبوب لا يُملك . وزعم بعض الكبار أنه عشق برنية[٣] بدكان عطّار

وذكر القوصى فى (الوحيد) أنه كان للشيخ جوار بالبهنسا يذهب إليهن فيغنين له بالدف والشبابة[٤] وهو يرقص ويتواجد . وكان أيام النيل يتردد إلى المسجد المعروف بالمشتهى فى الروضة ويحب مشاهدة البحر[٥] مساء ، فتوجه إليه يوماً فسمع قصاراً يقصر ويقول :

قطع قلبي هــذا المقطّع ... لا هو يصفو أو يتقطع

فصرخ وسقط مغمى عليه فصار يفيق ويردد ذلك ويضطرب ثم يغمى عليه وهكذا

٣٤٢ — الأمن ، الصحة ، الغنى ، الشباب

فى (العقد) : قال الحجاج بن يوسف لخريم الناعم : ما النعمة ؟

قال : الأمن . فإنى رأيت الخائف لا ينتفع بعيش

قال له : زدنى

قال : فالصحة ، فإنى رأيت المريض لا ينتفع بعيش

قال له : زدنى

قال : الغنى ، فإنى رأيت الفقير لا ينتفع بعيش

قال له : زدنى

قال : فالشباب ، فإنى رأيت الشيخ لا ينتفع بعيش

قال له : زدنى . قال : ما أجد مزيداً[١]

٣٤٣ — ... ما سمعناه فى كتاب الأغانى

مسعود الدولة النحوى مقـدم الشعراء فى أيام الأفضل أحمد بن بدر الجمالى أمير الجيوش المصرية :

ما أطاقوا تأمّـل الجيش حتى ... كلّت كل مقلة بسنـان

غنّت البيض فى طُلاهم غناء ... ما سمعناه فى (كتاب الأغانى)!

٣٤٤ — خلعت مالا تملك على من لا يقبل

حكي عن الشريف المرتضى أنه كان جالساً فى عِـلِيّة[٢] له تشرف على الطريق ، فمر تحته ابن المطرزي الشاعر يجر نعلا له بالية وهى تثير الغبار ، فأمر بإحضاره ، فلما حضر قال له : أنشدنى أبياتك التى تغزل فيها :

إذا لم تبلغنى اليكم ركائبى ... فلا وردت ماء ولا رعت العشبا

فأنشده إياها ، فلما انتهى إلى هذا البيت أشار الشريف إلى نعله البالية وقال : أهذه كانت من ركائبك ... ؟

فأطرق المطرزى ساعة ، ثم قال له : لما عادت هبات سيدنا الشريف (أيده الله) إلى مثل قوله :

وخذا النوم من جفونى فإنى ... قد خلعت الكرى على العشاق[٣]

عادت ركائبي إلى مثل ما ترى لأنك خلعت ما لا تملك على من لا يقبل ...

---

(١) الفارض : الذى يكتب الفروض للنساء على الرجال بين يدى الحكام (ابن خلكان ، الشذرات)

(٢) تأنس به : أنس به

(٣) البرنية : إناء من خزف ، شبه فخارة ضخمة خضراء ، وربما كانت من القوارير الثخان الواسعة الأفواه ج برانى (التاج)

(٤) فى (شفاء الغليل) : شبابة بالتشديد قصبة الزمر المعروفة ، مولد ، قال :

ومطرب قــد رأينا فى أنامله ... شبابة لسرور النفس أهلبا

كأنه عاشق وافت حبيبتـه ... فضمها بيـديه ثم قبلها

(٥) كل ماء كثير عند العرب بحر

---

(١) فى (تاريخ بغداد) : القاضى أبو يوسف (يعقوب صاحب أبى حنيفة) رؤوس النعم ثلاثة : فأولها نعمة الاسلام التى لا تتم نعمة إلا بها ، والثانية نعمة العافية التى لا تتم الحياة إلا بها ، والثالثة نعمة الغنى التى لا يتم العيش إلا بها

(١) العلية (بضم العين وكسرها وكسر اللام وتشديدها وتشديد الياء) الغرفة والجمع العلالى ، قال الأزهرى : علية (بالكسر) أكثر من علية (بالضم) وعلي (بكسر العين واللام وتشديد الياء) جمع علية

(٢) وقبله :

يا خليلى من ذؤابة بكر ... فى التصابى رياضة الأخلاق

غنيانى بذكرهم تطربانى ... واسقيانى دمعى بكأس دهاق



ما بعد الطبيعة

MÉTAPHYSIQUE

للأستاذ محمد حسن البقاعي

كان علم مابعد الطبيعة يعرف فى القرون الأولى باسم (الفلسفة الأولى) وأول من أطلق عليه هذا الاسم هو أرسطو . أما مخترع كلة (ميتافيزيك) فهو (آندرونيكوس Andronicus) من جزيرة رودوس . والسبب الذي دعاه إلى تسمية هذا العلم بما بعد الطبيعة هو أن الفلسفة الأولى جاءت فى كتب أرسطو بعد الطبيعيات ، فأطلق عليها اسم ما بعد الطبيعة

أما موضوع ما بعد الطبيعة فهو درس الوجود من حيث هو موجود ؛ فهى تتعمق فى الأسباب وتبحث فيها أكثر من كل العلوم ، أى هى تبحث فى العلل الكافية لنفسها بنفسها والتى تنشأ عن كل المعلولات . ولقد حدد الفلاسفة موضوع ما بعد الطبيعة فقالوا : علم ما بعد الطبيعة يدرس الوجود المطلق وهذا الوجود يظهر لنا بصورتين :

١ — الصورة الطبيعية المادية ٢ — الصورة المعنوية

فعلم ما بعد الطبيعة يدرس الطبيعة والنفس ومباحث الفكر والعالم الخارجى والداخلى ، وهو على نوعين :

١ — الكونيات العقلية Cosmologie rationnelle وهو علم ما بعد الطبيعة الذى يدرس الطبيعة والمادة والحياة ، فهو يبحث إذن فى الطبيعة المادية

٢ — النفسيات العقليـة Psychologi rationnelle وهو علم ما بعد الطبيعة الذى يدرس مسألة الفكر وطبيعته ، والروح وماهيتها . فهناك إذن مسألتان : مسألة المادة ومسألة النفس ؛ وهذان المبدءان يحتاجان إلى مبدأ يكون علة لهما وهو الإلـه جل شأنه . فعلم ما بعد الطبيعة يبحث فى غاية الغايات وهو الله تعالى . ولنبدأ الآن بالبحث فى المادة التى هى من الكونيات العقلية فنقول :

١ — المادة La Matière

كثيراً ما بحث الفلاسفة فى المادة من القرون الأولى إلى العصر الحاضر ، ويتلخص بحثها فى نقطتين أساسيتين :

١ — الوصول إلى معرفة الأسباب التى تجعلنا نعتقد بوجود المادة

٢ — الوصول إلى معرفة حقيقة المادة بعد أن نقبل وجودها

أما وجود المادة ففيه مذهبان : مذهب الرأى العام والحس السليم ، ومذهب الفلاسفة . فالرأى العام يقبل وجودها لأنه كوجودنا ، ولأن الحياة العملية تسمح لنا بالاتجاه فى العالم الخارجى دون أن تخولنا حق الشك فى وجوده . ففكرة المادة وطبيعتها لا يصعب على الرأى العام والحس السليم بيانهما بياناً واضحاً ؛ فإننا نجدها مركبة من معان مألوفة . وكلنا نعتقد أن المادة هى جوهر دائم وراء الأعراض يتغير من صورة إلى أخرى دون أن ينعدم أو يزول . وإذا رجعنا إلى دستور العالم الكيميائى الفرنسى (لافوازيز Lavoisier) المسمى بمبدأ بقاء المـادة القائل : « لا خلق ولا فناء فى هذا العالم بل الكل فى تحول » علمنا أن المادة تتحول من شكل إلى آخر ؛ فالخشب مثلاً يتحول إلى رماد وغاز ، ثم تتكاثف الغازات ... وهكذا . فالمادة على كل حال موجودة لا تتلاشى . ونحن نعتقد أيضاً أن المادة غير متجانسة ، فهى تتصف بصفات مختلفة باختلاف الأجسام التى تتركب منها ؛ فكل جسم له مادة لا تشابه مادة الجسم الآخر ؛ فمادة الكبريت غير مادة الصوديوم ، ومادة الصوديوم غير مادة النحاس ، وهكذا . وهذه المادة عاطلة فهى لا تتحرك من نفسها لأنها غير قادرة على تبديل حالة سكونها بحركة ، أو تغيير شكل حركتها التى هى خاضعة لها

وأما الفلاسفة فقد ذهبوا فى وجود المـادة مذاهب شتى ، حتى أن (زينون ده ليه . Zènon d' Elé) أحد الفلاسفة الخياليين فى القرون الأولى بحث فى إثبات وجودها (وكأن ذلك يحتاج إلى إثبات) فقال : إن فكرة المادة لو حللناها لوجدناها مجموعة متناقضات لأن العناصر التى يتركب منها جوهر المـادة

كالزمان والمكان والحركة كلها متناقضة . فالحركة كلها تناقض وعلى ذلك فلا وجود للمادة أصلاً . وهو ينكر وجود الحركة كما ينكر معنى الزمان بالمعنى المعروف ومعنى المكان بالمعنى المألوف . وأدلته على إنكار الحركة كثيرة ، منها أن الأرنب إذا لحق أرنباً آخر وكان بينهما مسافة وكانت سرعة الخلفي نصف سرعة الأمامي فإنه لا يلحقه أبداً ، لأنه بحسب الحساب الرياضي يلحقه في اللانهاية ؛ وهما لا يستطيعان أن يذهبا إلى اللانهاية . فنرى أن بحثه أوصله في النهاية إلى إنكار وجود المادة . وكان (ديوجين) يعترض على زينون فيمشي ويقول : يا أستاذ ، ها أنذا أمشي فلم تنكر الحركة ؟

وقد بقيت هذه الأدلة إلى زمان (ليبنيز Leibniz) و (ديكارت Descartes) على بساط البحث ، ولكن (هنرى برغسون H. Bergson) رد عليه ردوداً كثيرة ؛ كما أن حساب ليبنيز (النهاية الصغرى) ليس هو إلا رداً على زينون وأدلته الفاشلة . هذا وإن فيثاغورس وأفلاطون وتلاميذه يقررون أيضاً أن الوجود الحقيقي ليس وجود الأشياء المحسوسة بل هو وجود المعقولات فقط ؛ لذلك فإن رجال الكهف (كهف أفلاطون [1]) أي الناس كافة لا يرون إلا خيالات حقيقية . فقيمة العالم الخارجي في نظر أفلاطون الذي يعد في طليعة الخياليين هو هذه الخيالات . وقد أعطى أفلاطون للمعقولات وجوداً بالنسبة للعالم الخارجي المحسوس . لذلك فإنه يسمى خيالياً وجودياً

أما في العصر الحاضر فقد ظهر أناس دافعوا عن الخيالية أمثال فيخته وهيكل . ولكن (بركليس) أخذ مذهب الخياليين وقال بعدم وجود العالم مستنداً في تحليله إلى المعرفة التي توجد عندنا عن العالم الخارجي ، ولكننا نعلم أن هذه المعرفة الموجودة فينا ناشئة عن الاحساس ؛ وقديماً قال أرسطو : الاحساس أول العلم . فهذه الاحساسات التي هي أول العلم وأساسه هي شخصية وكيفية ؛ ومجموع صفات الأجسام يمكن أن يرجع بالنسبة إلينا إلى هذه الاحساسات التي لولا وجودها عندنا لما استطعنا أن نطلع على الأجسام . فالجسم إذن هو مجموع إحساسات إذا حذفت لا يبقى من الجسم شيء . يقول (بركليس) إنني لا أعرف الجوهر ولكني أعرف العرض . وهل ندرك الأعراض إلا بالاحساسات . فالاحساسات هي تغيرات نفسية تتأثر من الجواهر وتجعلنا ندرك الأعراض الناشئة عنها

وقد قسم (بركليس) الأحوال الناشئة في الذهن والصفات الموجودة في الأجسام إلى قسمين : (١) الصفات الثابتة كالحرارة والطعم والنور (٢) الصفات الأولى كالامتداد والمقاومة اللذين لا ندركهما إلا مصحوبين بصفات ثابتة مثل الحرارة والنور والطعم . فالأجسام كلها تستحيل إلى هذه الصفات الأولى والثابتة . ونحن لا ندركهما إلا بالاحساسات — كما تقدم — فكثير من معلولات النفس يبين لنا أن الادراك والوهم متعاونان في الطبيعة وأنه لا يمكننا تمييز أحدهما عن الآخر . أضف إلى ذلك أننا عند ما ندرك العالم الخارجي لا نستطيع في محاكتنا أن يحصل عندنا منه إلا فكرة ، والفكرة هنا كل الحقيقة . لذلك فاننا لا نمتزج في نفوسنا في كل إدراكاتنا . وهذا هو نفس دستور بركليس القائل Etre, c' est être plus — أي الوجود هو الادراك . فهل العالم الخارجي موجود لأننا ندركه أم ندركه لأنه موجود ؟ فبحسب دستور بركليس موجود لأننا ندركه

ويمكننا في مناقشة أدلة بركليس أن نقتصر على ذكر الاعتراضات التي وجهها الوجوديون على هذه الأدلة ؛ فقالوا إن إحساساتنا ناشئة عن الأشياء الخارجية وهي منتظمة ، ومتفقة لأننا نرى ما يراه غيرنا ، فنحن إذن متفقون بالأشياء التي نراها . فالقوانين التي تخضع لها إحساساتنا تجعلها معقولة في نظرنا . وهذا ما كان يدعو (ليبنيز) إلى القول : « إن إدراكاتنا ليست إلا عبارة عن أحلام مرتبط بعضها ببعض ، بل هي أحلام ذات إحساس . أي أنها منبعثة من وجود خارجي » فالوجوديون رفضوا بذلك نظرية الخياليين وقالوا إن العالم الخارجي موجود ...

أما البحث في طبيعة المادة فتناول الفرضيات التي دافع عنها العلماء فيما يتعلق بماهيتها وذلك يتخلص في نظريتين عامتين :

١ — نظرية الميكانيكية . Le mècanisme

٢ — نظرية الحركة . Le dynamisme

فالميكانيكية تستدل في دراسة الجسم الاعتباري الكيفي بالاعتبار الكمي . فكل التبدلات في الأجسام يمكن أن نرجعها إلى الميكانيكية وهي تتبدل بحسب تقدم العلم ؛ وأول شكل للميكانيكية هو ما نجده عند ديموقريطس الذي يقول : إن العناصر الأولى في الجسم هي الجوهر الفرد (أتوم) وهو لا يرى ولا يتناهى الجواهر الفردة من طبيعة واحدة ولكن لها أشكالاً مختلفة ؛ ويتمدد هذا الجوهر الذي هو متين صلب لا يتبدل حاله ولا وزن له . فتتكون الأجسام ، ولا يوجد في هذه الجواهر

(١) يفرض أفلاطون أن الناس عامة أشبه شيء برجال يسكنون كهفاً لا يخرجون منه أبداً ولا يعلمون ماذا يوجد خارجه . ولكن جدرانه شفافة تعكس خيالات الاشياء الخارجية ، فهم يرون خيالات حقيقية للاجسام . ولا يستطيع أحد أن يرى حقيقة الاشياء إلا الفيلسوف

حرارة ولا لون ولا صوت . فهو يؤكد أنه لا يوجد شيء محسوس في هذه الحقيقة الوجودية التي سماها جوهر أفرد . لذلك قال : إن الجواهر لا كيفية فيها بل هي كمية ؛ فهو يقربها من صفة حسية . ويمكن اعتبار نظريته هذه كتجربة أولى علمية لتوضيح الأشكال بصورة أولى ميكانيكية . ومن أشهر الفلاسفة الذين طبعوا على غرار ديموقريطس هو (أبيقور) فقد نسج في ذلك على منواله وزاد عليه بإعطائه الجوهر الفرد قوة الانحناء أي جعله يستطيع أن يغير الجهة التي يتحرك فيها إذ جعل فيه قوة خاصة

والشكل الآخر الميكانيكية هو نظرية (ديكارت ، وسبينوزا) اللذين يعتقدان أن جميع خواص الأجسام يمكن إرجاعها إلى الحركة . ومن هنا نشأت جملة ديكارت المشهورة (أعطني حركةً وامتداداً وأنا أكوِّنُ العالم) . ولكن هذا القول يحتاج إلى برهان بل إلى براهين ؛ فديكارت يعتقد أن الحركة والامتداد هما العنصران الفعالان في تكوين هذا العالم ؛ وقد أنكر بذلك قدرة الإله وأثبت الفاعلية لأحد مخلوقاته الذي لا يستطيع أن يغير حالة سكونه بدون قوة إلهية تسيطر على الامتداد وتهيمن على الحركة فتبعث فيهما الحياة . ويظهر لنا أن رأي ديكارت فاسد ، وإن كان قصده بالامتداد العاري عن كل صفة حسية كالحرارة واللون أي هو الحيز الهندسي الذي لا يوجد فيه آتوم حسي بل هو الفراغ اللانهائي

ولقد تطورت الميكانيكية بعد ديكارت تطوراً هاماً ؛ ففي العصر الحاضر ، ليس الجوهر الفرد كما كان عند ديموقريطس وأبيقور بسيطاً لا يتجزأ بل هو مختلف عن رأيهما كل الاختلاف . فمبدأ الاحتفاظ بالقوة وتناقض القدرة وخاصة تشعع الراديوم هو الذي جعلهم يعتبرون الآتوم مركباً من الألكترونات السالبة التي تدور حول عقدة مركزية Noyau موجبة ومسافاتها كنسبة بُعد الأرض عن الشمس ... فإنهم يكادون يرجعون كل الأجسام إلى عنصر واحد ، حتى أن (غوستاف لوبون) قال : إن هذه الآتومات تسبح في أثير سيَّال غير مادي تتكون منه جواهر الأشياء

يستند أصحاب هذه النظرية إلى الاحساس ، فقد قال أحدهم (هلمولتز) إن الاحساس نسبي ؛ فكثيراً ما يكون المؤثر واحداً وتختلف الحساسية وتختلف الاحساس وبالعكس . فالاختلافات الظاهرة في العالم الحسي ناتجة إذن عن اختلافات الحس الموجود . لذلك قيل : إن عنصر الأشياء هو واحد ؛ ولهم أدلة أخرى يصلون بها إلى إثبات وصف الحادث وهي التجارب التي قام بها (هو يكنس) و (دوفريل) و (آراغو) وهي مسألة الاهتزاز والانتشار للنور . ولكنه ظهر أخيراً أن النور يكون بالتموج

وعند ما ظهرت هذه الأدلة قبلها العلماء في بادئ الأمر ظناً منهم أنها منتجة . ثم انتقدها كثيرون منهم وأثبتوا بُعدها عن كنه الحقيقة . فدليلهم الذي يعلنون به أن القدرة في العالم لها كمية ثابتة لا يسمح لنا بإرجاع كل القدرة إلى قدرة واحدة . وأول شيء يجعلنا نحجم عن قبول رأي الميكانيكية هو وجود بعض الحوادث التي لا يمكن أن تنعكس ، فلو كانت ميكانيكية لانعكست . فالشمس مثلاً تشرق من الشرق وتغرب في الغرب فهذه لا يمكن أن تنعكس ؛ وهذا دليل واضح على وجود قوة تحركها في هذا الاتجاه . وقد انتقد (ليبنز) رأي ديكارت فقال : إذا قبلنا أن الامتداد يجوز أن يكون فيه حركة أو سكون ، فلو فرضنا جسماً مثل (ح) تحرك في هذا الامتداد وصادف جسماً آخر (ب) في حالة السكون ، فهذا الأخير لا يبقى ثابتاً بل يتحرك ، ولكن حركته ليست نفس حركة (ح) بل يقاومه بكتلة ، وهذه الكتلة تنقص من سرعة الجسم (ح) . نستنتج من ذلك أن الامتداد والحركة ليسا كافيين ، ولو كانا كافيين لما كان يجب أن ينقص من سرعة (ح) وحركته

إذن يوجد في المادة شيء غير الحركة والامتداد وهو القدرة المدخرة التي هي عبارة عن قوة تتصف بها الأجسام ولا يمكن الاستغناء عنها فهي قوة كامنة تسمى (الموناد Monade) فهي جوهر روحي تتكون من الأجسام وبواسطته يمكن تعليل المقاومة

أما كل من دافع عن نظرية القدرة فإنه يستبدل أجزاء الآتوم بالقدرة وهي الحقيقة الجوهرية الكامنة في قلب كل الأشياء . فقد قال (أوسفالد) : عند ما نصاب بعصا فبماذا نشعر ، أبا العصا أم بالقدرة ؟ بالطبع نشعر بالقدرة التي هي الشيء الايجابي الثابت الموجود في كل الأشياء . وهي ليست واحدة في جميع الأجسام ؛ بل تتصف بأشياء مختلفة متناسبة مع شخصيتها وخواصها النوعية . والصعوبة في ذلك هي أن قوة تصدر هذه القدرة هل هي مركبة من عناصر بسيطة بقوة الارادة كما يظن (هوكسلي Huxley) ؟ على أن القدرة الفعالة لا يمكن أن تعتبر إلا كحالة شعورية فقط ؛ وهذا يمكن أن يظهر غريباً . ولكن إذا حاول الانسان أن يهتم بما يفهمه عن القوى المتجهة الواحدة منها نحو الأخرى يرى أنه يدركهما كأنهما يتحركان الواحد نحو الآخر بسرعة ما . وعند ذلك لا يتصور إلا الحركة تاركاً القوة جانباً . وأما أن يتصور كل جزء كأنه مصحوب بشيء يشابه حالته كحالة الارادة وهو يعلم هذه الجهة . ونحن نشك أن صعوبة التفكير بالقوة شيء غير مقابل بالارادة . فليبنز إذن يقترب من الحلول الأخيرة عن طبيعة المادة

(انتهى بحث المادة) دمشق

محمد حسن البقاعي



أقصوصة من ه . ستاكبول

أحلام فضية

للأستاذ دريني خشبة

من نجوة[1] (بون بك) يشرف الناظر على مرأى عجيب من رؤوس الأيك النائم في الغابة ، والحياة الدائبة الصاخبة في الوادي ، وأبراج (تور) المنطبعة في أديم الأفق ، والشعاب الملتوية بين الدوح الجبار ... ثم ... هذه الرقائق من الفضة تنساح في مجرى اللوار ، راقصة على رنين النواقيس من ڤيروفلاي ، مضطربة تحت أقدام أرليان ، متلاشية في لا نهائية البعد مما يلي المنبع ... في شماف السُّفُن

ومع ذاك ، فلم يكن فوق بون بك غير سنديانات أربع ، منهن دوحة جدة ، عظيمة الجذع ذاهبة الأفنان ، وإن يكن قد نخرها الزمان ، ونامت قرونه في الكهف الكبير الذي احتفرته في أصلها ... ثم شجيرات حفيدات تينع في الربيع ، وتنضر في الصيف ، وتتجرد فيما سوى ذلك من فصول السنة . ولم تغير الثورة شيئاً من معالم هذا الغاب ، على كثرة ما غيرت من معالم فرنسا ، فهذا هو العم المعجوز المتداعي « جين كابوش » ما يزال يقطع الخشب من الغابة ويحمله إلى شاتود نيقر ، وما يزال يعالج الشجر ويصيد الأرانب ، ويؤدي الأعمال التي كان يؤديها أبوه وجده من قبل ، والتي كان يؤديها آباؤه الأولون ... وإن له لآباء أولين يتلاشون في لا نهائية الأزل ، كما يتلاشى اللوار في ظلام السُّفُن ... فاذا قدر لك مرة أن تلقاه في أحد شعاب الغابة ، لقيت رجلاً من القرون الغابرة لا يعرف عن زماننا شيئاً ، ولا تربطه بالعصر الحديث رابطة ؛ وكذلك تلقى بنته الجميلة الساذجة العذراء ماري ، التي إن حدثتها حدثت قطعة من الغابة لا تدري ما وراءها ... على أنها مع ذاك تصبيك وتفتنك ، وتسحرك بجمالها العميق الملغوز ، وتتأرج في نفسك وقلبك كما تتأرج البنفسجة الفيحاء ، لا تدري من أين يسبيك جمالها

أما أبوها — العم جان — فقروي — لا ، بل ريفي قح ، يحسبه من يلقاه نابي الذوق ، جافي الطبع ، لأنه لا يعرف قوانين التقاليد التي تفرضها حياة المدن على سكانها ، ومن هنا عدم تمييزه بين طبقات الناس ، فهم جميعاً سواء عنده ، حتى رئيس الجمهورية الذي كان يجوب غاب ڤيروفلاي مرة ، فلقيه فحياه ؛ وكان جان يحتسي كأساً من الخمر ، فلم يلتفت للحاكم الأعلى حتى أتى على النطف الأخر في الكأس ، وبعد أن مسح فمه بكمه ، وتجشأ وتمتق ، قال للرئيس : « أجل ، أعرف أنك الرجل الذي يختاره الفرنسيون ليمثل دور الملك في باريس ! » .

وماذا تنتظر من جماع أحطاب وإنسان غاب أن يقول غير هذا ؟

وربما كان للأسطورة التي تناقلها آل كابوش أباً عن أب ، وجداً عن جد ، في طويل الأزمان والآباد ، أثر في هذه المنجهية التي تبدو أحياناً في أخلاقهم . ذلك أنهم كانوا دائماً يفخرون أن ملك الغابات في الزمن القديم كان رئيس قبيلهم ... فإذا كلم جان رئيس الجمهورية بهذه اللهجة ، فأحجى بالرئيس أن يشكر الله ، لأنه فرد عادي جداً إذا قيس بجان سليل ملوك الغاب ! !

***

ما كان أجملَ الأصيلَ فوق البون بك وقد جلست ماري الساذجة فوق المعشب الحلو ، تحت السنديانة الكبيرة ، تعمل بإبرتها في جورب الصوف الخشن الذي كانت تبيع ما تصنع منه في نهاية كل شهر لبازين العجوز تاجر الملابس في بورجه ! لقد كانت تتحدث إلى عنزها المربوطة في جذع السنديانة كلما ضجرت من العمل ، كما كانت تغني بصوتها الرنان الجميل فتغمر

(١) النجوة والنجا والمنجى والنجو ما كان أكبر من الربوة وأصغر من الجبل

الغابة المنتشية بألحانها ، وتملىء أجواء الوادى الساكن بأغانيها الطورينية الحبيبة ، التى لم تعرف النوتة ، ولم تأخذ طريقها إلى البيان ، بل احتفظت بريفيتها المقدسة لتخرج من فم مارى ، كما تخرج موسيقى الملائكة من قدس السماء !

ما كان أجمل الأصيل فوق البون بك حين جلست مارى فوق عشبه ، وقد أخذ الخريف يواسى الناس بأنفاسه الربيعية ، وقد راحت مارجوت — العنز السعيدة — تقضم الحشيش الحلو مرة ، وتصغى إلى غناء مارى أخرى ... ومارى ، فيما بين هـذا وذاك تعمل أناملها فى الجورب الذى أوشك أن يتم ، لتتم به الاثناعشر جورباً ، ولتنطلق بها فتاة البون بك إلى التاجر بازين فتتسلم منه ثمنها ، وتعود بالحلوى والفطير فتملأ فم مارجوت !

لقد جلست مارى تعمل وتغنى ، بينما كان السادة الباريسيون أصحاب الفيروفلاي ، وأصحاب قصرها المنيف المنيع الذى تأخذه العين فى أفق الغابة فترى منه أبراجه الشواهق ، يصيدون الأرانب فى المتائه والمسارب ، ويطلقون بنادقهم على الثعالب والقنافذ ، فتتردد طلقاتها فى أذنى مارى ، وتثير فى قلبها الصغير شتى الهواجس والأفكار ...

« الإبرتان الشقيتان !! » هكذا كانت الفتاة تفكر ...

« لا بأس ، صبراً يابازين صبراً ، ها قد أوشكت أفرغ من هذا الحذاء الذى تشتريه منى بفرنكات معدودة لاتكاد تكفى ثمناً لمسح حذاء واحد من سادتنا ... أوه ! يالك من عقدة خبيثة ! إذهبى إلى الشيطان ! ألا ما أصعب إصلاح العقدة المختلطة ! إنها كاللغز الذى لايمكن حله ! ما هذه الطلقات النارية ياسادة ! ! إرحموا الثعالب والأرانب ، وارحموا أبى جان السكين ! ماذا يصيد هو إن لم تبقوا على أرنب واحد ! هذا بلاء والله ! أوه ! وارحمتاه لك يا أبى ! إن صيد أرنب أو أرنبين أيسر عليك من قطع عسلوج واحد مع فرق ما بين الأجرين ! الأغنياء ! الثروة التى لايحصيها عد ! ... ... الخ ... »

وسمعت الفتاة صوت بوق يُدَوِّى فى آفاق الغابة شغلها عن إبرتيها ، وعن غنائها ، وعن مارجوت ... وعن كل شىء ... حتى عن هذه السلسلة غير المنتظمة من الأفكار الفضولية التى كثيراً ما تزدحم بها رؤوس الناس ، لأتفه مايثيرها من الأسباب

وأرسلت عينيها فى شعاب الغابة مرة ، وفى مسايل الوادى أخرى ، فرأت السادة الأغنياء قد فرغوا من صيدهم ، وقد حمل خدمهم أحمال القنص على خيول ضخمة ، وانطلق الجميع يعدون نحو القصر المنيف ، كما تعدو السمادير أمام العين العشواء ، وكما تنطلق أحلام النائم فى كل صوب ... حتى غابوا عن بصرها

وعادت مارى إلى إبرتيها بعد إذ ثابت إلى نفسها ... وبدأت تعمل وتغنى من جديد ! ولم تكد تفعل حتى سمعت صوتاً حنوناً يهتف بها ، فأرسلت عينيها فى كل حدب ، ولكنها لم تر أحداً ... وارتبكت هذه المرة ، وحاولت أن تعمل ، ولكن العقد اختلطت أكثر من ذى قبل ، وعاد الصوت الحنون يهتف وينادى ... ونظرت مارى ، وبحثت بعينيها فى كل مكان ، فإذا بنبيل من السادة الصيادين يناديها فى السفح البعيد ، ويشير إليها بيده الآمرة أن تذهب إليه

لم تتحرك مارى ، بل ظلت ساكنة صامتة ... وكأنما غيظ النبيل من سكونها ، فنمز حصانه الكبير غمزة فانطلق يطوى النجوة صعداً فى غير مبالاة ، كأن الدنيا بأسرها ملك له ولأجداده الخيول من عهد عاد ! حتى الخيل تعرف الصفاقة أضعاف مايعرف النبلاء !

لقد كان رجلاً عملاقاً له مهابة وفى عينيه نُبْـل ، وله لحية خفيفة فوق صدغيه قد وخطها الشيب فجعلها سنجابية حائلة كلون السحب فى أوائل الخريف ... وكان عريض المنكبين بارز الصدر واسعه ، عظيم القامة ، يشغل الناظر إليه عما يلبس من غريب الثياب التى تتخذ للصيد فى غاب فرنسا ... فلا خافية النسر التى راح النسيم يداعبها فوق مفرقه ، ولا الجوارب الجلدية وما فوقها من أخفاف ، ولا هذه السراويل الفضفاضة التى تغطى ظهر الجواد ، ولا تلك القفازات اللامعة التى تحجب يديه ، ولا هذه النياشين التى تتوهج فوق صدره ، والقلائد الذهبية التى تتحوى حول عنقه ... لا شىء من هذا أو ذاك قد بهر عينى مارى كما بهرها هذا الجسم المرقلى ، وذاك الوجه الصارم ، والرجل العملاق !

واقترب الجواد بمن عليه ...

وتبسم النبيل وكأنما كانت الدنيا كلها تبتسم معه ، وحيَّـا مارى ، ثم قال :

— « قصر فيروفلاى ياجميلتى ! قصر فيروفلاى ! أتستطيعين أن تدليني عليه ، أو تعلميني الطريق التى أسلكها لأبلغه ؟ لقد شاعت

سبيلي في شعاب غابتكم المضلة ، فهل لك في أن تصحبيني بإغادة ؟ »

لقد نظر النبيل إلى ماري فحمد الله والصدف أن ضلت سبيله ، ليلتقي هذه الجنية الريفية الحسناء في هذا الأصيل الجميل من أصائل الخريف ، وفوق هـذه النجوة الناضرة المطلة على الغابة الشاسعة جميعاً ... ولقد كان يبلع ريقه مرة بعد أخرى وهو يكلمها ، وكان يكلمها بعينيه الجائعتين ، أكثر مما كان يكلمها بلسانه اللاهث الظامئ ، وكان يحس قلبه وهو يخفق ويخفق ، كأنما يتمنى أن يثب إلى عينيه ليشبع من مرءى ماري هو الآخر ! !

يا لسحر الجمال ! لقد عجب النبيل كيف عاش عمره الطويل الفعم بلا حب ، وفي الدنيا العريضة مثل هـذه الفتاة التي تسجد تحت قدميها القلوب !! لقد جعل جسمه يرتجف فوق الجواد ، وجعل يقلب عينيه في الفتاة التي انعكست على وجهها آراد الشمس الغاربة فصبغته بالذهب ، وتركت في جبينها وخديها سَفْعاً من الذهب يشبه الشفق ، يزيده فيها الصغير الخبيث اشتعالا !

— « أوه يا سيدي ! إنه هناك وراء هذا الدوح ، وهو قريب جداً من هنا ... أنظر ... ها هي ذي أبراجه تلوح وراء الغصون العارية ... ثم ها هي ذي الطريق واضحة بينة ! »

وكانت ماري قد نهضت من مكانها وهي تقول ما تقول ، وتشير بيديها ، فينحسر الكُمّان عن مرمر الذراعين اللدنتين ، وطرف الثوب عن جزء من الساقين الجميلتين ، فيجن جنون النبيل الجليل !

وفي الحق ... لقد خفق قلب ماري هو الآخر ، لأنه أحس بما ينبعث من عيني الرجل من الصبوة والشغف ... وما كان يسيل في ألفاظه من الرقة والضراعة ، وإن لم يعبر عنهما إلا بهذا الروح الذي يُفهم من غير أن يُرسم ! !

ووثب الرجل من فوق جواده ، ووقف قريباً من ماري ، ثم راح ينظر في الأفق ويتماثل ويقول :

— « أجل ... ها هي ذي أبراجه ! ولكن أنى لي أن أهتدي إليه في غابتكم المضلة ... تعالي يا صغيرتي فدليني عليه ... إني أخشى أن أبيت ليلي في الغابة مع أرانبكم وثعالبكم !

— « بكل سرور يا سيدي ... لا أحب إلي من أن أفعل ... هلم !

— وهذه المعز ؟ أتتركينها هنا ؟

— « أوه ! إن ما رجوت ستنتظرني هنا ياسيدي ! وأين تذهب ما لم أعد إليها ... ثم هي مربوطة مع ذلك !

— « إذن ، هلمي !

وانطلقا نحو السفح ، ثم مضيا في طريقهما ... هي إلى جانبه ، أو في ظله ! وهو ، وحصانه من ورائه ، ينظر صامتاً .. ساكناً

* * *

وفكرت ماري في اللهجة التي كان يكلمها بها فشاع فيها نوع من الزهو ، ثم اتسع خيالها فوثقت أنه أحبها ، بل هو يكاد يعبدها ، وكان هذا الاحساس يملأ الدنيا في عينيها سعادة ، وفي قلبها بهجة ... وعرفت من ثيابه ومن منطقه أنه ليس من هـذه الجهة من جهات فرنسا ... قد يكون ضيفاً على آل فيروفلاي ... على كل حال هو ليس من هذا الأقليم ...

وأخذ الرجل يخلق الأحاديث ليسمع صوت ماري ... هذا الصوت الموسيقي العذب الذي كان يملأ سمعيه وينفذ إلى أعماق قلبه كأنه رنين القُبل ! وكانت هي تجيب في ظرف وتيه وأدب ، فتخلب لب الرجل ، وتذيب نفسه الوامقة بما تكسر من مخارج الكلمات ، وما توشي في أواخر الجمل ، كأنما الربيع الفينان ينثر وروده ورياحينه في أكناف الحديقة ! !

ولقد كان القصر على بعد فرسخ أو نحوه من النجوة ، ولقد كان قصراً عتيقاً من عهد شارل التاسع ، ولكن الغابة كانت مع ذلك أقدم منه عهداً ... بل كانت هي هي الغابة منذ كانت هناك غابات في جنبات فرنسا ، ومنذ كان جد ماري ملكاً عليها في بطن الأزل !!

وذكرت ماري هذا الجد الملك ، فسرى في أعطافها الكبر القديم الذي ما يفتأ يسري في أعطاف آبائها وأهلها ... وللحال آمنت أنها جديرة بقلب هذا النبيل ، وأنه سيكون فخوراً بها !!

ونظر النبيل إلى جنبات الغابة فتغيرت في عينيه صورتها الجافة الخريفية التي انطبعت فيهما منذ الصباح ، وصارت جنة فيحاء آهلة بالحور العين أمثال اللؤلؤ المكنون ، منضورة بالورد عبقة بأريج الرياحين كهذه الجنة التي وعد المتقون ! لماذا ؟ لم يدر الرجل ... لكنه كان يؤول كل ذلك بوجود ماري الجميلة إلى جانبه ... ماري ، التي غيرت نظرته إلى الحياة ، فجعلتها مشرقة باسمة ، بعد أن كانت قطراً كالحة ، لا تصلح لهذا العبث الذي كان يقرأ عنه في الكتب ، والذي سماه الشعراء بالحب ...

ولم تزل ماري تسلك بالرجل في هذا المنعرج وذاك المنعرج ، ولم تزل تسير به في متاه كثيرة ، وتخطو به في فجاج كأنهن مصائد

ونفاخ نصبها أبوها للأرانب ، حتى وقفا آخر الأمر لدى بوابة عتيقة ... هي من غير شك أعتق من القصر الذى تؤدى إليه وأذهب منه فى البلى

وكانت البوابة صغيرة واطئة ، فصاحت مارى فجأة وهى تقول : « أوه يا سيدى ! لن يستطيع حصانك أن يدخل من هنا ... أوه ! لقد نسيت ، ليتنى ذهبت بك إلى باب القصر ! »

فتضاحك النبيل ثم قال : « ليس هذا شيئاً ... إنى سأربطه هنا ، وهو ينتظرنى كما تنتظرك ... ما ... ما ... ما اسم عنزك ؟ »

— مارجوت يا سيدى

— مارجوت ! إى والله مارجوت ... ولكن ما سنك يا ... عنزتى ؟

قال ذلك وقد أرسل أصابعه المرتعشة تربت تحت ذقنها الجميل وعينيه الشوقتين تسبحان فى جمالها الريان !

— أنا ؟ سنى ست عشرة سنة !

— ما شاء الله ! سن فينانة ! واسمك إذن ! ؟

وقال ذلك أيضاً بعد أن صعد آهة عميقة كادت تحرق بحرها صدره

— مارى ... مارى يا سيدى !

— مارى ! مارى ! وحسب ! ؟

— مارى كابوش يا سيدى !

— مارى كابوش ... حسن جداً ! مارى كابوش اسم جميل ظريف ، بيد أننى سأطلق عليك من الآن اسم (زهرة الغابة !)

ثم تقدم فأخذ رأسها الصغير فى يديه المتخاذلتين ، وطبع على جبينها قبلة عميقة حارة ، استودعها كل أمانى حبه ، ثم دس يده فى جيبه وقال :

— «والآن ... تقبلى منى هذا القليل ... من ... الذهب ... للذكرى ... لا للفائدة ! » ولما نظر فى حافظته لم يجد بها إلا قطعة فضية واحدة ... وحدجته مارى بعينين جريئتين ثم صاحت به فى رقة وحب : « أوه ياسيدى ! ليست بى حاجة إلى نقود فأذكرك بها ... إنى سأذكرك إلى الأبد ... لن أنساك ! »

وامتلأت عيناها بالدموع فجأة ... وأحست بقلبها يرتعد ويخفق ... وودت لو استطاعت فهربت فى شعاب الغابة ، لولا أنها نظرت إلى الرجل فوجدته مثلها ممتلىء العينين بالدموع ... وصدره يعلو ويهبط ، آية على ما فيه من مثل ما فى قلبها !

— ليس فى حافظتى إلا هذه ... لتكن تذكاراً منى على كل حال !

— تذكار أحتفظ به إلى آخر رمق فى حياتى ياسيدى !

— « أوه ! دائماً ياسيدى ياسيدى ! نادينى باسمى المجرد يامارى ! أنا أدعى هنرى ... ! ليت لى مثل سنك يامارى ! ليت لى مثل سنك ! »

— حسبك قلب مثل قلبى يا ...ه ... ه ...

— هنرى ... ! مارى ... ماذا بك ...

وجعلت الفتاة تبحث الأرض بعينيها مرة ... وتحدق بهما فى وجه هنرى مرة أخرى ... ثم تناول الرأس الصغير مرة ثانية فطبع عليه قبلتين حملتا سر قلبه ، وودعها وهو يقول لها :

— هنا يامارى يجب أن نلتقى الليلة بعد أن يشرق القمر !

وأومأت مارى برأسها الصغير ... وانطلقت تعدو كالمجنونة فى ظلام الغابة ...

* * *

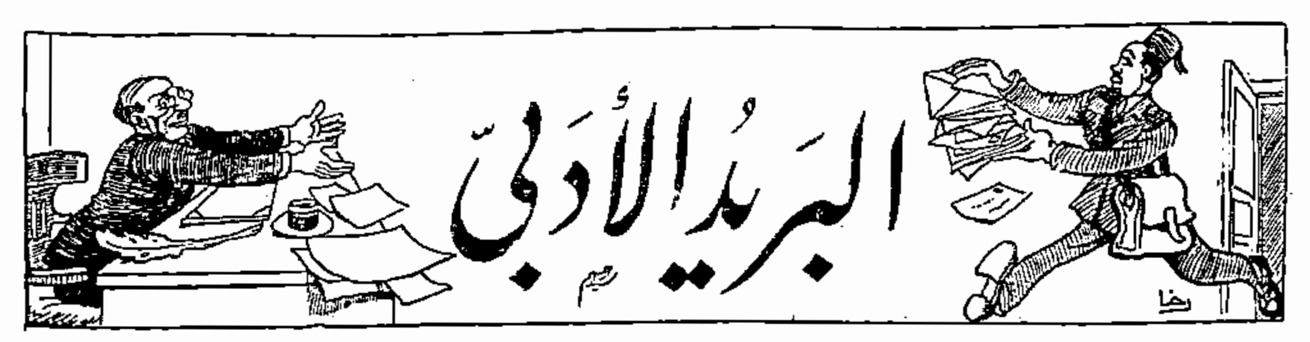
ولم تفتأ مارى تستعيد الذكريات الحبيبة التى لم تمض عليها هنيهات ... ولم تفتأ تردد هذه النداءات الجميلة « يا جميلتى ... يا صغيرتى ... أوه شيرى ! ! يا عنزتى ... إلى هذه المترادفات التى يحتلى بها قاموس الحب ، وألواح الغزل الإلهية المقدسة ... هل هو حلم ؟ !

نبيل من أماثل نبلاء فرنسا يحب هذه الريفية الساذجة التى لا قيمة لها إلا مسحة من جمال ؟ هذا النبيل العظيم الذى يملك أن تكون له جنة من حسان باريس ، تشغفه هذه القروية من بنات الغاب ؟ بل هو حلم ... بل هو حلم !

وعادت إلى البون بك ففكت رباط مارجوت ، وحملت سلة أشغالها ، وعادت أدراجها إلى كوخ أبيها مصدعة القلب ، واجمة الروح ، كاسفة البال ، لا تفكر إلا فى هذه اللحظة التاعسة التى لقيت فيها هذا النبيل .. أو لم تلقه .. لأنها ظنت أنها كانت تحلم !

وأقبل أبوها فأعدت له عشاءه فالتهمه ، ثم انبطح على فراشه الخشن ولم يلبث أن نام ، وراح يغط فى سبات عميق

وجلست هى فى غرفتها تجتر أحلامها ، وتصور الحادث الأكبر الذى زعمته حدث لها ... ولكن رنين القبل على ... جبينها .. ! كان ما يزال يرن ويطن .. والنداءات الغزلية كانت ما تزال تتردد فى مسمعيها ...



العربية والانكليزية

كتب كاتب فى جريدة « الأجبشيان جازيت » عن تعلم المصريين اللغة الانكليزية يقول إن المصريين فى مقدمة الشعوب التى تتقن التكلم والنطق بالانكليزية ، ولكنهم لا يصلون فى ذلك إلى براعة السويديين والهولنديين وإن كانوا يفوقون الألمان والفرنسيين في ذلك بمراحل ؛ ويرجع ذلك إلى أن الطلبة المصريين يتلقون اللغة الانكليزية فى مراحل الدراسة الأولى من الأساتذة الانكليز أنفسهم ، ويخصصون لدراستها فى الأسبوع عدة ساعات ، وبذلك تتاح لهم فرصة ملائمة لتلقى نطقها ولهجتها من أبنائها الأصليين ، وبذلك ينجون من اللهجات الغريبة التى تخالطها أحياناً فى البلاد الأخرى

وفى قول الكاتب كثير من الصحة ، ولكنا نستطيع أن نزيد على قوله أن الطلبة المصريين لم يبلغوا فى تحصيل اللغة الانكليزية ما كان حقيقاً بهم أن يبلغوه فى مثل هذه الظروف والفرص الملائمة ، فالحصص التى تخصص لتدريس الانكليزية فى مدارسنا الثانوية تكاد تعادل الحصص التى تخصص للعربية ، ومع ذلك فقد لوحظ أن الطلبة يلاقون فى تعلمها صعاباً شديدة ، وأنهم ما زالوا فى تعلمها فى مستوى لا يبعث على الرضى . وقد كان لهذه المسألة ضجة فى العام الماضى اهتم لها رجال التعليم والمسئولون من رجال وزارة المعارف

على أن الذى نريد أن ننوه به هنا هو أنه إذا كان للمصريين حظ من إتقان اللغة الانكليزية سواء فى التحدث أو الكتابة بها فإنه من بواعث الأسف أن يجىء هذا الاتقان فى أحوال كثيرة على حساب اللغة العربيـة . وإذا كان ضعف الطلبة فى اللغة الانكليزية قد لفت نظر المسئولين من رجال التربية ، فان ضعفهم فى اللغة العربية كان أيضاً باعثاً إلى الاهتمام والنظر

وفى رأينا أن اللغة العربية ما زالت مغبونة الحق فى مدارسنا الثانوية ، وقد كان طغيان الانجليزية والفرنسية على مناهج التعليم

وانهزم الظلام فجأة فهبت إلى النافذة فرأت القمر ينبثق من الأفق الشرق ، ويكسو بنوره الأحمر البركانى جوانب السماء رهبة . ثم ارتفع مليك الليل رويداً فابيض نوره ، وجعل كلما ارتفع ينشر فى الوجود أضواءه ولألاءه ... فاعتزمت مارى أن تخرج إلى موعدها ... ولو كان حلماً حقاً ...

وانسرقت الفتاة فى ظلام الكوخ الذى كان يملأه شخير أبيها النائم رهبة ثم انفتلت إلى الغابة ... الغابة الفضية الصامتة التى كانت حينذاك أشبه بمعابد الهنود ، فجعلت تنسرب فى شعابها وكلما تحرك غصن أو برز أرنب وجلت المسكينة وجلا شديداً ، وهى التى كانت تحرس الغابة فى الليالى المظلمة من الذؤبان والسباع . ثم لم تزل تسير فى هرولة ... ولم يزل قلبها يخفق ويدق ... ولم يزل خيالها يمتلىء بالمخاوف ... حتى كانت عند البوابة القديمة ! وا أسفاه ! تبدد الحلم الفضى ... إن هنرى ليس عندها !

وتلبثت مارى تتنسم أثر هنرى ... لكنها لم تجد شيئاً ... فعادت محطمة ذاهلة موهونة ... واخترقت الغابة وهى لا تخشى من أشباحها شيئاً ... إذ ما يهمها أن يفترسها الذئب أو يحرقها المفريت ؟! لا يهم ...

* * *

ورأت أنواراً ساطعة تنبعث من الكوخ ... وسمعت فيه ضجة ... فخشيت أن تدخل ... وظنت أن أباها افتقدها فلم يجدها فولت هاربة

ولكن هنرى كان قد لمحها من نافذة كوخ أبيها ، فانطلق فى إثرها .. ثم عاد معها إلى الكوخ لتعانق أباها الذى يقول لها :

— « هنيئاً لك يا ماري ... هنيئاً لك يا هنرى ... لك أكبر الشرف يا بنى أن تكون سليلة ملوك الغاب زوجتك ! »

وهكذا تحقق الحلم الفضى !

دريني خشبة

فى الماضى مفهوماً ، وكانت لذلك ظروفه وبواعثه . ومن الحق أن نقول إن هذا الافتئات على حقوق العربية فى الماضى كانت له آثار سيئة فى تكوين الأسس التى قام عليها التعليم القوى فى العهد المنقضى ؛ ولكنا لا نفهم لماذا يبقى هذا الافتئات باقياً إلى اليوم بعد أن تحررت برامج التعليم من القيود التى كانت تحول فى الماضى دون تقديم العربية على سواها

إن تعليم اللغات الأجنبية الحية من العناصر الجوهرية فى تكوين الثقافات الحديثة ؛ ولا شك أن الانكليزية والفرنسية من أهم اللغات الثقافية ، ولكن الذى نرجوه هو ألا يبقى هذا العنصر الأجنبى كما كان فى الماضى أداة للغزو الثقافى والمعنوى على حساب اللغة القومية ، وأن يقتصر الأمر فيه على الاغتراف من مناهل الثقافة والعرفان

هل كانت الفيوم منزل شعب فى العصر الحجرى

عثر المنقبون أخيراً فى بقعة أثرية على مقربة من بحيرة قارون بمديرية الفيوم على جمجمة بشرية قديمة جداً . وقد عرضت هذه الجمجمة على العلامة الدكتور درى أستاذ التشريح بكلية الطب المصرية ، فقرر بعد الفحص أنها لرجل بالغ ، ويغلب على الظن أنه كان ضعيف العقل نظراً لصغر حجمها عن الطبيعى . على أن هذا الفحص التشريحى ليس أهم ما فى الموضوع ، وإنما المهم هو القيمة الأثرية ؛ فقد عرفت هذه البقعة المجاورة لبحيرة قارون بأنها كانت وطن شعب مصرى قديم يرجع إلى آلاف السنين قبل الميلاد . ووجد فيها العلماء المنقبون ولاسيا العلامة الألمانى بونكر كثيراً من الآثار التى تدل على أن هذه البقعة قد عرفت العصر الحجرى . ودلّ فحص الجمجمة المشار إليها من الوجهة الأثرية على أنها لإنسان عاش منذ نحو ثمانية آلاف عام . فاذا صح ذلك فان علم الآثار المصرية يخطو خطوة جديدة نحو معرفة التاريخ المصري القديم . ذلك لأن قدم الوثائق الفرعونية التى عثر عليها ترجع إلى نحو ثلاثة آلاف عام قبل المسيح أى إلى خمسة آلاف عام ؛ ولكن هذه اللقطة الجديدة إذا عززت ببعض آثار أخرى توجد فى نفس المنطقة وتماثلها فى القدم ، قد توجه أنظار الباحثين إلى مرحلة أقدم جداً من تاريخ مصر الفرعونية

هذا وقد أحال الدكتور درى هذه المسألة إلى العلامة فى الأجناس الدكتور تيودور منود مدير متحف التاريخ الطبيعى بباريس ، فأجاب بأن خواص الفلين فى الجمجمة المشار إليها توجد الآن عند كثير من فصائل الزنوج فى أفريقية الشمالية ، وفى الصحراء الكبرى . وتاريخ هذا الانسان مجهول ، ويوجد بين القبائل المغربية قبائل تحمل جماجها بعض هذه الخواص

وإذن فالمسألة ما تزال موضع البحث والتحقيق

جائزة فاروق الأول

استقر الرأى على أن يطلق على الجوائز التى اقترحها الدكتور حافظ عفيفى باشا لتشجيع الحركة الادبية والعلمية : جوائز فاروق الأول فى الادب وفى غيره من الفروع والفنون التى يستحق صاحبها من أجلها تلك الجائزة . ورأت اللجنة جعل الموضوعات التى تدخل فى نطاق الجائزة ستة تتصل بالحياة المصرية فى الأدب والقصص والاجتماع والتشريع والتعليم والزراعة

وتقرر أن تكون قيمة كل جائزة خمسمائة جنيه وأن يكون التقدم إليها مرة فى كل عامين . ورأت اللجنة توثيقاً لأواصر اللغة وتوحيداً للثقافة بين أبناء الأمم الشرقية إباحة دخول المسابقة فى جوائز الأدب والقصص والاجتماع للشرقيين من أبناء العربية

ودرست اللجنة طريقة اختيار المؤلفات ، وهل ينحى فيها نحو « جائزة نوبل » أو يكتفى بأن يتقدم الكتاب والمؤلفون بكتبهم وتآليفهم مطبوعة طبعاً جيداً . وقد استقر الرأى على الأخذ بالطريقة الأخيرة

وعند إقرار المبدأ تؤلف اللجان الفنية المختصة كل عامين لبحث ما يتجمع لديها فى هذا الصدد . وقد لوحظ فى جعل المدة سنتين أن تتاح الفرصة الكافية لكبار المؤلفين لاجادة ما يكتبون وما يؤلفون

لجنة تنظيم الصحافة

يشتغل صاحب المعالى الدكتور محمد حسين هيكل بك وزير الدولة ، ببحث المسائل التى درستها اللجنة الحكومية « لتنظيم جمعية الصحافة وترقية شؤونها »

وقد استقر الرأى على أن يضم إلى اللجنة أعضاء جدد من كبار الموظفين وأصحاب الصحف

وسيرأس اجتماعها القادم صاحب الدولة رئيس الوزراء

مهرجان الأدب في الزفاف الملكي

فكر جماعة من قادة الفكر وزعماء الدولتين الشعر والنثر في اشتراك الأدب في ابتهاج البلاد بالزفاف الملكي ، وقد اجتمع فريق منهم في مكتب حضرة صاحب العزة محمد العشماوي بك وكيل وزارة المعارف وتدارسوا هذه الفكرة ثم أقروها واتفقوا على تأليف لجنة فرعية من بينهم لوضع برنامج المهرجان والاتصال باللجنة الرئيسية المعهود إليها تنظيم حفلات الزواج الملكي . وستجتمع اللجنة الرئيسية على أثر فراغ اللجنة الفرعية من مهمتها لتضع البرنامج النهائي للمهرجان

المؤتمر الدولي السابع لتوحيد قانون العقوبات

في يوم الأربعاء الماضي تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك فأناب عنه من افتتح المؤتمر الدولي السابع لتوحيد قانون العقوبات رسمياً في دار الأوبرا الملكية ، وفيما يلي بيان موجز عن تاريخه

تألفت بعد الحرب العظمى أول هيئة اهتمت بتوحيد قانون العقوبات وهي الجمعية الدولية لتوحيد قانون العقوبات . ولما كثر عدد المشتركين فيها فكر مسيو بيلاسكرتير الجمعية العام ومندوب رومانيا الدائم لدى عصبة الأمم في عقد مؤتمرات لبحث الموضوعات التي تهتم بها الجمعية ، وكان أن أنشأ المكتب الدولي لتوحيد قانون العقوبات .وقد جاء في المادة الأولى من قانونه الأساسي أن غايته دراسة اقتراحات الدول والهيئات التابعة لمجلس عصبة الأمم والهيئات الخاصة الأخرى المؤدية إلى توحيد قانون العقوبات والقيام بالأعمال التمهيدية لتحديد المسائل التي يمكن الاتفاق على توحيد القانون فيها ، والسعي لعقد مؤتمرات دولية والعمل على دوام الصلة بين أعمال المؤتمرات التي تعقد . وأخذ الاهتمام بأعمال المكتب يزداد ونفوذه ينمو حتى أصبح لأكثر الدول مندوبون فيه

وقد عقدت ستة مؤتمرات في بروكسل وباريس وفارسوفيا وروما ومدريد وفي كوبنهاجن على التوالي . وأولها مؤتمر بروكسل وقد عقد في سنة ١٩٣٧

معهد التعاون الأسكري وشعبة في مصر

كانت وزارة المعارف قد عهدت إلى عميد كلية الآداب زيارة المعهد الدولي للتعاون الفكري في خلال الصيف الماضي ووضع تقرير عنه ، وقد رأى أن يبحث الأمر مع صاحب السعادة علي الشمسي باشا ممثل مصر في جامعة الأمم قبل وضع تقريره

ومتى تم وضع هذا التقرير بدأت الشعبة المصرية عملها . وقد صدر قرار وزاري بتأليفها من حضرات أصحاب السعادة والعزة وكيل وزارة المعارف ، ووكيل الخارجية ، ووكيل الحقانية ، ومدير الجامعة المصرية ، وعمداء كليات الجامعة ، ورئيس المجمع اللغوي ، وناظر معهد التربية للبنين ، وناظر دار العلوم ، ومدير مصلحة الآثار المصرية ، ومدير دار الآثار العربية ، وأمين المتحف القبطي ، ومدير دار الكتب المصرية ، ورئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ورئيس الجمعية الجغرافية الملكية ، ورئيس الجمعية الملكية للاقتصاد والتشريع ، ورئيس الجمعية الطبية المصرية ، ورئيس الجمعية الرمدية ، ورئيس المجمع العلمي المصري ، ورئيس المجمع المصري للثقافة العلمية ، ورئيس جمعية محبي الفنون الجميلة ، ورئيس جمعية علم أوراق البردي ، ورئيس الجمعية الصحية المصرية

وقد ترك للأساتذة أعضاء الهيئة اختيار الرئيس والسكرتير الفني لها من بينهم . وسيكون أول عمل تقوم به وضع اللائحة الداخلية لتنظيم الأعمال حتى يصدر بها قرار وزاري من معالي وزير المعارف

حول جائزة جونكور

لاحظ بعض الأدباء كما لاحظت المكشوف أننا ذكرنا في باب البريد الأدبي في عدد سابق أن الكاتب البلجيكي ش . بليسنيه نال جائزة جونكور في العام الماضي عن كتابه (أزوجة) مع أنه نالها عن كتابه (جوازات مزورة) . وهذا الخبر نقلناه عن ملحق الأحد الأدبي لجريدة Neues Wiener Tagblatt النمسوية لمراسلها الباريسي . وهو صحيح ولكنه ناقص . وبيان ذلك أن بليسنيه رشح منذ العام الماضي لنيل الجائزة بروايته الأزوجة Mariages ، ولكن ترشيحه أرجئ يومئذ لاعتبارات تتعلق بجنسيته لأنه غير فرنسي . وفي هذا العام قدم روايته الجديدة Faux Passports وانتهت أكاديمية جونكور إلى مبدأ جديد في مسألة الجنسية ، وقررت أن تمنح بليسنيه الجائزة عن روايتيه المذكورتين . وهذا هو ما صرح به رئيس الأكاديمية مسيو روزني Rosny نفسه في خطابه يومئذ



السينما والأدب

بقلم محمد على ناصف

في عامي ١٩٣٢ ، ٣٣ كان الفلم البوليسى أكثر أنواع الأفلام شيوعاً وأوفرها غلة على أصحاب الشركات

وفى عام ١٩٣٤ اختص بمرتبة النجاح الأولى الفلم الموسيقى ، وجاء دور الفلم التاريخى فى الموسم التالى

ثم كان الطابع المميز لإنتاج الموسم الماضى أقدام الشركات على إخراج الأعمال الأدبية الكبرى ؛ فشهدنا « حلم منتصف ليلة صيف » و « روميو وجوليت » لشكسبير و « البعث » و « أنا كارنينا » لتولستوى و « دافيد كوبرفيلد » و « قصة مدينتين » لديكنز و « مونت كريستو » و « الفرسان الثلاثة » لاسكندر دوماس الأب ، و « غادة الكاميليا » لدوماس الابن . و « جحيم دانتى » وغير ذلك من الأفلام التى لم تعرض للآن فى بلادنا مثل « الجريمة والعقاب » لدستويفسكى ، و « كما تشتهى » لشكسبير .

إذا تتبع القارئ هذا البيان المجمل تبين حقيقة ناصعة : تلك أن السينما تتطور من حين لآخر ، وأنها تأخذ فى تطورها اتجاهاً ثقافياً يقرب إلينا معنى السينما وما تستطيع أن تحققه من آمال كبار

لقد كان كثير من الأدباء والفنانين في أول عهود السينما يترفعون عن العمل من أجلها ويحسبونها سلعة ذات بهرج لاصلة لها بالفن ، حتى صرح بعض كبار الكتاب ومن بينهم الكاتب الإنجليزى جورج برنارد شو بأنهم لم يسمحوا بإخراج كتبهم على الشاشة . وقد كتب لويجى بيرانديللو مقالاً فى إحدى المجلات الأدبية عام ١٩٢٧ يحاول فيه الإقناع بفشل الفلم الناطق

واليوم يتهافت كل كاتب وفنان على السينما ، ولا نستثنى أشدهم غلواً فى المحافظة والاتزان . فبرنارد شو نفسه لايشغله الآن شاغل أكثر من إعداد مسرحيتيه « جان دارك » و « بيجماليون » للسينما . فإذا علمت أنه قد أخرج له قبل ذلك مؤلفان ولم يلقيا نجاحاً يذكر ، إذا علمت ذلك ، أدركت قوة إيمان الكاتب الساخر بما كان يسخر منه

ولقد يعجب القارئ كذلك لو علم أن برنارد شو قد ظهر فى فلم طويل مع زميله جون درنكوتر وسيرأوستن تشمبرلن لمناسبة حفلات تتويج ملك الانجليز

ولقد أذيع أخيراً أن مستر ونستن تشرشل قد كلفه ألكسندر كوردا بعمل سيناريو عن حياة لورنس المعروف باتصاله بقضية العرب

ويعد ه . ج . ولز الكاتب الانجليزى المبتدع فى طليعة الكتاب اهتماماً بالسينما ؛ فقد أخرج له ثلاثة كتب فى العامين الأخيرين كتب هو بقلمه سيناريو أحدها Hngs to Come

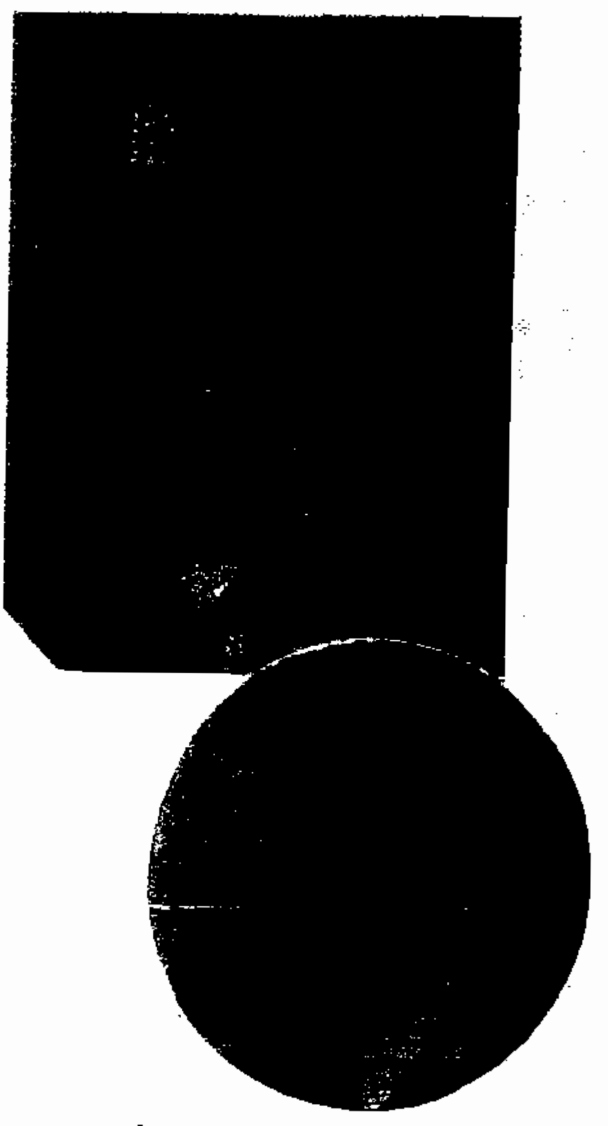


برنارد شو يتحدث إلى وندى هيلر التى تمثل دور البطولة فى فيلم « بيجماليون »

ومثله نويل كوارد وإن كان هذا الأخير قد انفرد بتمثيل دور البطولة في فلم أمريكي لم يعرض إلى الآن بمصر The Scoudrel ونال كلٌ من الفيلم وممثله نجاحاً كبيراً

ولقد شاهدنا أخيراً الموسيقار ليوبولد ستكوفسكي وأوركستراه الشهير في أحد الأفلام ، كما أن شركات السينما لا تدع جهداً في سبيل التعاقد مع كل فنان يصلح مادة للسينما . وقلما يظهر في عالم الفن كتاب أو مسرحية ناجحة دون أن تلقى اهتماماً من أحد الرواد . حتى لقد قيل إن إحدى الشركات راقها عنوان مسرحية فدفعت من أجل العنوان أربعة آلاف جنيه ولم تحفل بالموضوع

ولا أنسى في هذا المجال الكاتب الفرنسي مارسيل بانيول صاحب « توباز » الذي ألف شركة سينمائية لإخراج كتبه



مستر ونستن تشرشل الذي يضع الآن سيناريو عن حياة الكابتن لورنس من شخصياته المغفور له الملك فيصل

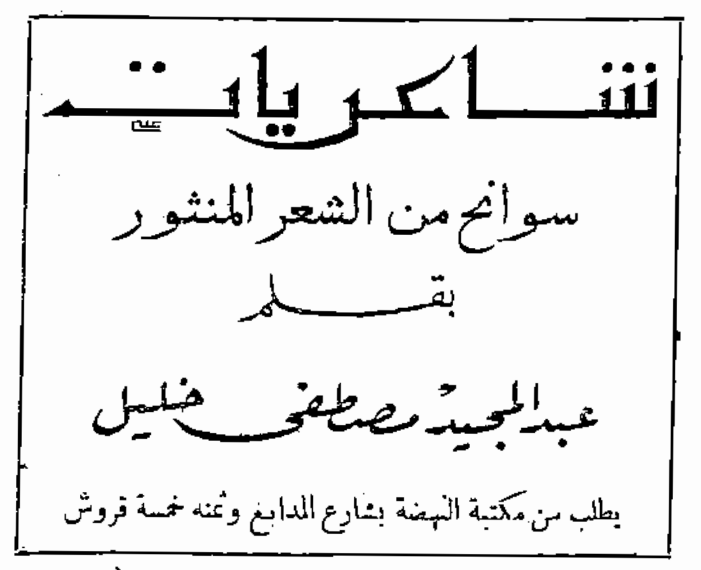
كل هذه أمثلة أسوقها للتدليل على أن السينما قد أخذت تمتزج بالأدب وتتصل به اتصالاً وثيقاً وإنها وإن كانت متعة الجماهير ، فهي كذلك متعة للخاصة لا يعدلها شيء



ﻫ . ج . ولز في ضيافة الطفلة الممثلة شيرلي تمبل بهوليوود

والسؤال الذي قد يتردد هنا : « ما مصير المسرح الآن ؟ »

محمد علي ناصف



طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدي رقم ٧